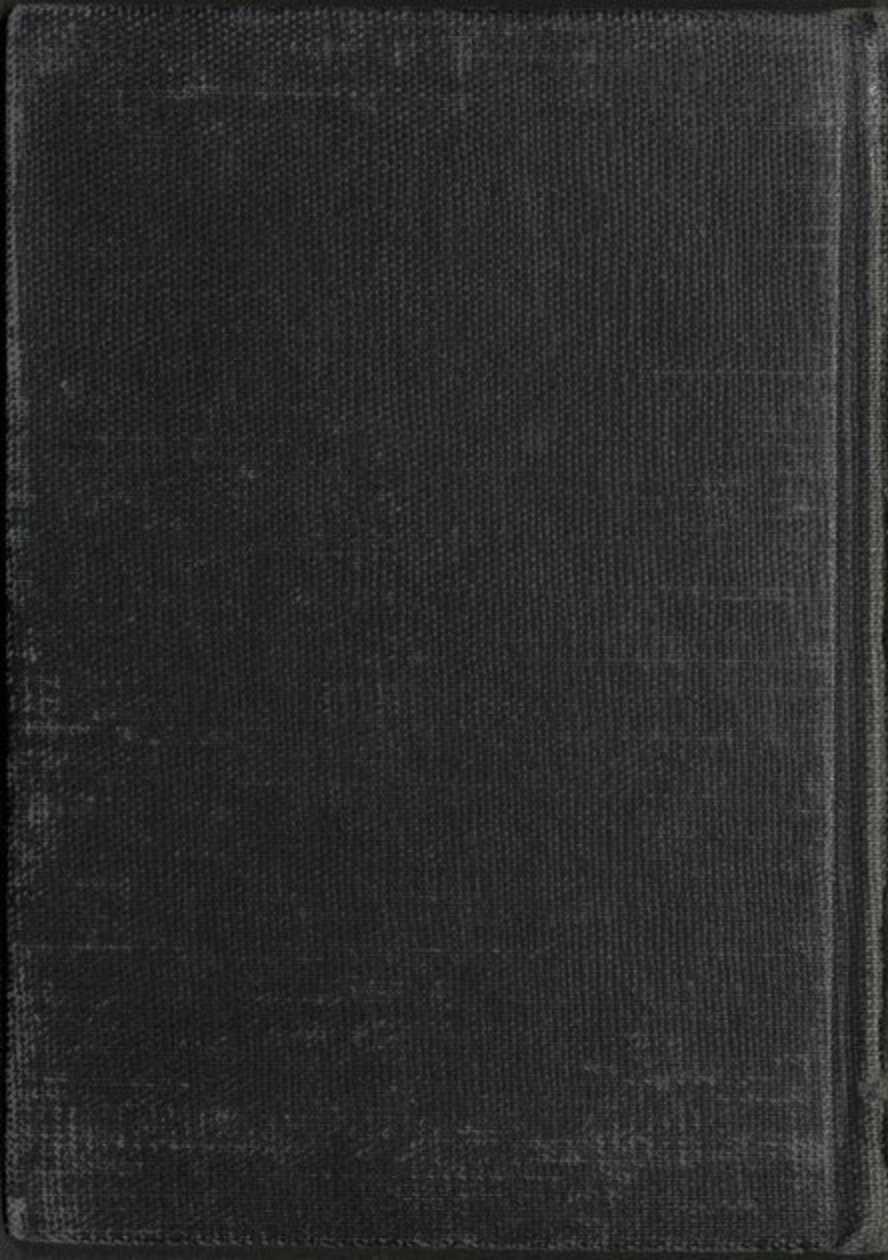


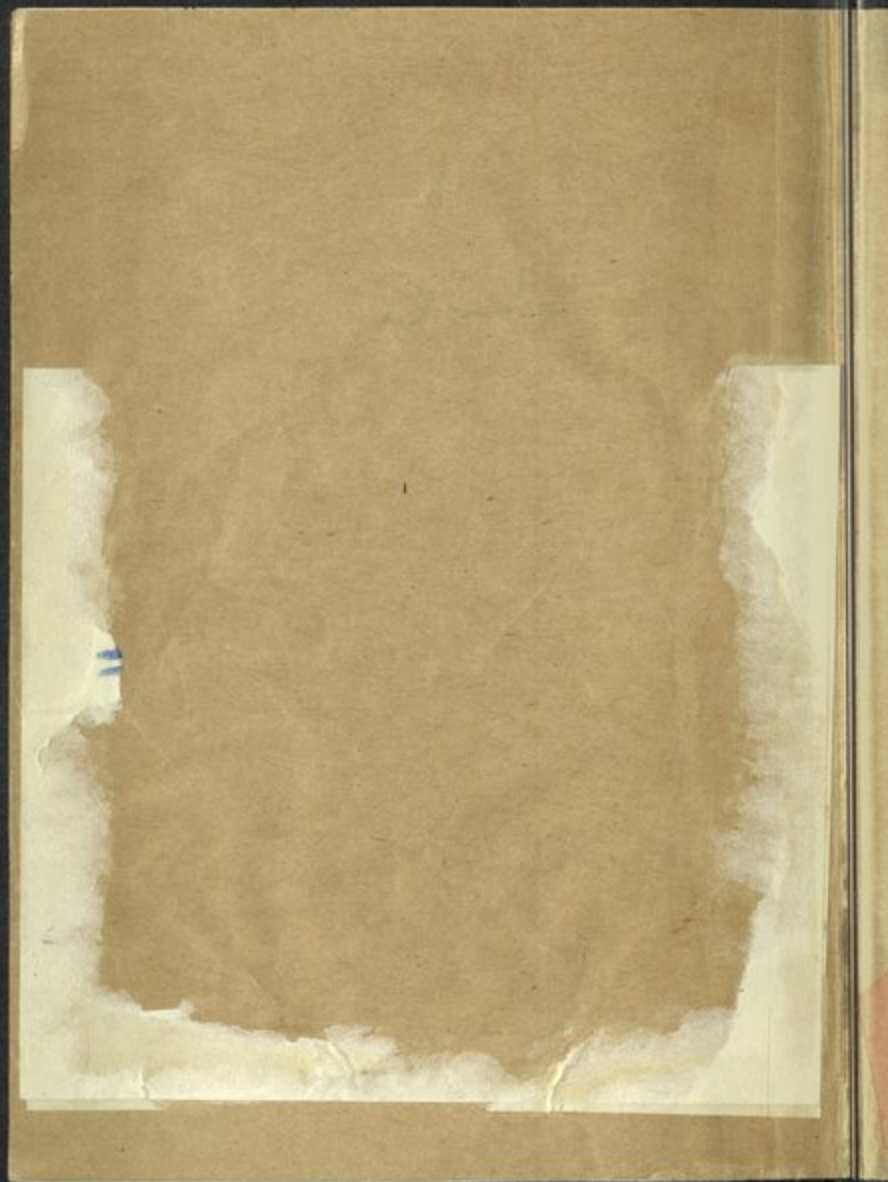


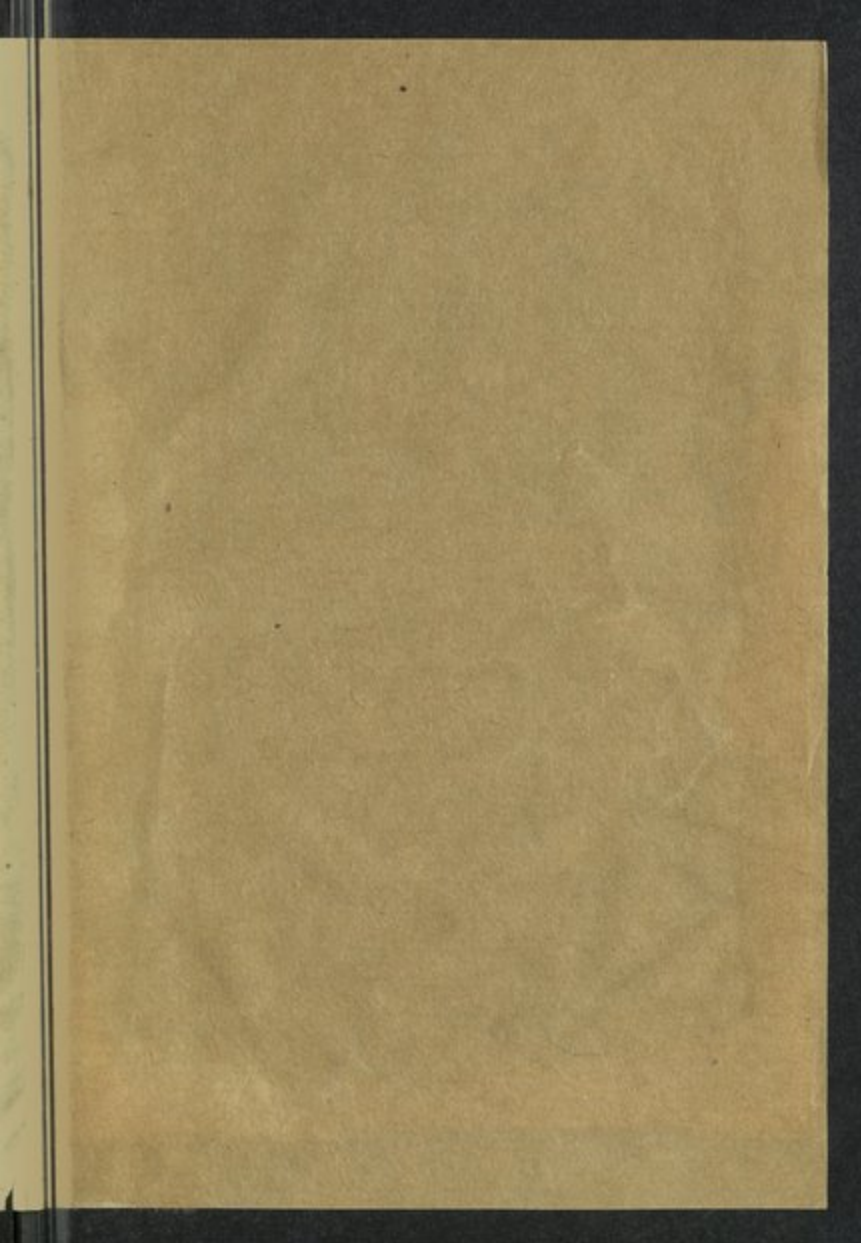


AMERICAN UNIVERSITY

LIBRARY

OF BEIRUT





بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين



تولستوی



حسن محمود

891.78

T654ymA
C.1

تولستوی

East. Jan. 1950

68952

٥٤

اقرا

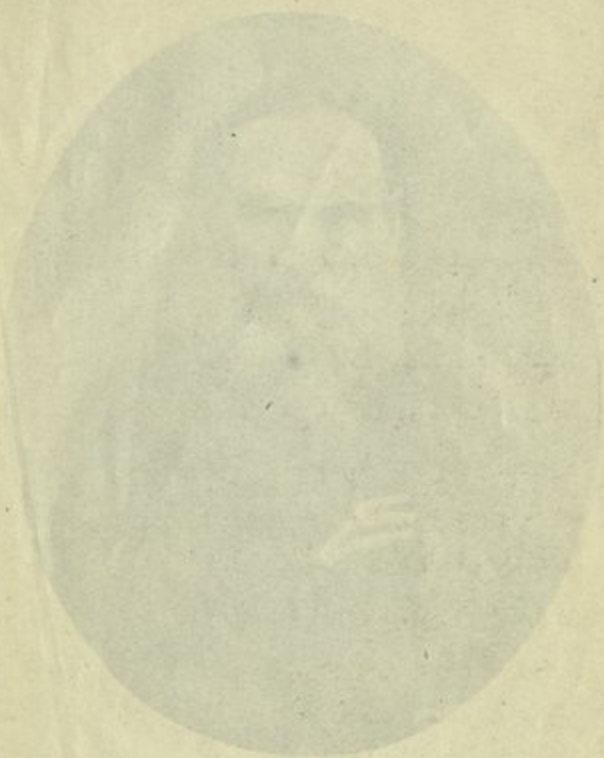
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٥٤ — مايو سنة ١٩٤٧



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بصر

[illegible]



Handwritten text, possibly a signature or a name, located below the circular portrait. The text is written in a cursive or script style and is also quite faint, matching the overall tone of the page.

نبلاء وغير نبلاء

كانت روسيا في الربع الأول من القرن التاسع عشر خير موطن لتلك الطبقة المميزة من بني البشر التي تعرف بالنبلاء . وكان هؤلاء النبلاء في تلك الأرض الواسعة أكثر اطمئناناً على أموالهم وضياعهم من أمثالهم في أي ركن من أركان أوربا القديمة . لقد عصفت بفرنسا ريح الثورة ، فاقتلعت هؤلاء السادة وخسروا أموالهم وأراضيهم ، وأضاعوا رءوسهم على المقصلة ، ثم قام نابليون ابن الثورة ، ويرى بعض الناس أنه أعاد تلك الطبقة ، ولكنه في الحقيقة لم يفعل ، بل أوجد طبقة أخرى تتركن في ميزتها إلى العمل والبطولة ، لا إلى الميراث من جد قديم ، وقام بحروبه في أنحاء أوربا حاملاً ريح الثورة والحرية معه ، فاهتزت عروش الملوك ، وترنحت تيجان الأمراء في أنحاء أوربا بأسرها حتى حدود روسيا ، وأحيا في قلوب الشعوب آمالاً وأحلاماً كانت هاجعة من قبل ، ووضع أسساً لم يستطع النبلاء هدمها فيما بعد . على أن نابليون وإن استطاع أن يحرك مشاعر الشعوب في غرب

أوربا ، لم يستطع عند ما اجتاحت أرض روسيا أن يبذرفي
الروسيين بذوراً ، ذلك لأن مركز العرش المؤيد من النبلاء
والكنيسة كان وطيداً . أما الشعب فكان مصفداً في الأغلال إلى
درجة أنه لورفع القيد من قدميه لوقف مبهوتا لا يستطيع السير ،
وإذا هو يتناول القيد ويعيده إلى مكانه .

إذن نابليون لم يحمل رسالة في زحفه إلى موسكو ، أو هو حملها
ولكن الشعب الروسي لم يتلقها . وكان الجنود الذين يساقون
أفواجا لمقاتلة جيش نابليون العظيم لا يشعرون إلا بأنهم يدافعون
عن أرض القيصروالكنيسة المقدسة . وتقدم نابليون في تلك البلاد
الترامية منتصراً في كل مكان بفنه الحربي العظيم ، ونظام جنوده .
وكان الغرض الذي يسعى إليه يلوح لناظريه ، ولكنه ظل دائماً
بعيداً كالسراب ، فما هو غرضه ؟ أن يهزم الجيش الروسي
وينخضع روسيا لإرادته ؟ أن يستولى على موارد روسيا وخيراتها
الكبيرة ؟ أن يحمل عرضاً رسالة الثورة ويوقف ذلك المارد النعسان ؟
أم هو يرغب في كل هذا ، وفوق هذا ، أن يكون له فخر السيطرة
على أوربا بأسرها وما يتبع ذلك من مجد خالد ؟ إنه يتقدم
بجيوشه ظافراً ، ولكن في بلاد هجرها أهلها فهو لا يكاد يجد من
الآقوات ما يكفي جيشه ، وتنضم الطبيعة إلى أعدائه وذلك البرد
القارس ينقض عليه ، فاذا جيشه يتضاءل ويتمزق . ويدخل

٩
موسكو العاصمة الروسية بقبابها الالامعة ، فاذا المدينة خاوية هجرها
أهلها بعد أن أشعلوا بها النيران . فأين إذن تلك الجيوش التي
يريد دحرها ؟ وأين إذن ذاك الشعب الذي يريد إبلاغه رسالته ؟
ليس أمامه إلا أن يتقهقر بجيشه قبل أن تصبح هذه البلاد الغربية
مقبرة له ولهذا الجيش . وهو يتقهقر وسط الغابات الموحشة ،
والأراضي القاحلة ، والعداوي لاحتقه و ينقض عليه كلما لاحت الفرصة
ثم يختفي ، والبرد والجوع يلاحقانه ولا يختفيان . فاذا جلا جيش
نابليون العظيم عن أرض روسيا لم يكن إلا فلولا ، وإذا هذه الحملة
الخائبة تمكن خصومه من القضاء عليه .

في نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر أخذت روسيا مرة
ثانية إلى سكينتها وإلى نظامها القائم المتين الذي يرأسه القيصر
مؤيداً من الكنيسة والنبلاء . أما عامة الشعب فتألف من السواد
الأعظم من الفلاحين الذين لم يكونوا في الحقيقة إلا أرقاء ؛ إذ هم
جزء من الأرض التي ولدوا فيها لا يستطيعون أن ينزحوا عنها إلا
بإذن السيد ، وهم يباعون مع الأرض فيرتفع ثمنها إذا كثروا ، وهم
خاضعون لخدمتهم في أموالهم ، بل في نفوسهم . أجل هنالك قوانين
تحرم على السيد أن يسيء معاملة تابعيه ، وتحرم توقيع العقوبة
البدنية التي سمحت له بها القوانين من قبل ، غير أن السلطات لم
تكن لتعاقب السيد إذا أقدم على إيذاء تابعه ؛ بل حدث أن أقدم

بعض السادة تحت تأثير الخمر أو في ثورة الغضب على قتل رجالهم ؛ فلم تقتص منهم ما يسمونها العدالة ، ولم يوقع عليهم قصاص من يزهق الأرواح .

تلك حال السواد الأعظم من الشعب الروسي ، هم عبيد ولكنهم شر من العبيد ؛ لأن العبيد يختلفون عادة في الجنس أو الوطن عن سادتهم ، أما هؤلاء فهم من جنس السادة وأبناء وطنهم . أما السادة فقوم يشبهون أمثالهم في البلاد الأوربية الأخرى في أشياء ، ويفترقون عنهم في أشياء . حاول بطرس الأكبر في القرن السابع عشر أن يصبغ نبلاءه بصبغة المدنية الأوربية ، فهو يدعوهم إلى حلق لحاهم وارتداء الملابس الأوربية بدلاً من « القفطان » ، ونجح إلى حد كبير في تغيير المظهر ، ولكن هل نجح في تغيير النفوس ؟ وفي عهد كاترين العظيمة في القرن الثامن عشر اتسع ملك روسيا ، وثقف النبلاء بثقافة الغرب ، وصارت الكلمة العليا للغة الفرنسية والأزياء الفرنسية . فالبلاط الروسي يتخذ بلاط فرساي نموذجاً والنبلاء يظهرون احتقارهم للغة الروسية فلا يتكلمون ولا يكتبون إلا الفرنسية ولا تُلد لهم إلا قراءة المؤلفات الفرنسية ، ولكن هل تغيرت نفوسهم مع ذلك ؟ وفي أوائل القرن التاسع عشر اشتبكت روسيا في حروب عدة وخطيرة ، منها غزونا بليون ، الذي ذكرناه ، ومنها حروب تركيا ؛ ظهرت هذه الحروب قلوب

النبلاء وأخذوا يفكرون لوطنهم ، فوجدت النزعات السلافية ،
 ووجدت النزعات المقاومة لها التي تنادى بالاتجاه نحو الغرب .
 وفي هذا وذاك عاش النبلاء مقلدين أوروباً في مظهرهم لا سيما
 إذا كانوا من سكان العاصمة أو من سكان موسكو . أما أعيان
 الريف ذوو الأملاك الشاسعة فانهم يعيشون في دورهم الواسعة
 التي شيدها على الطراز الفرنسي أحياناً ، أو شيدت على النظام
 الروسي القديم وهي دور واسعة الأرجاء تتسع لما يحتاجون إليه من خدم
 كثيرين ومن ضيوف يفدون عليهم وهي دور خالية مما عرفه الغرب
 حينذاك من وسائل الراحة والترف . وكان السيد من هؤلاء النبلاء يفضل
 عيشة الريف على حياة المدن ؛ إذ يستطيع ألا يتكلف من المظهر
 ما تحتمه عليه الحياة الاجتماعية في المدن بل يعيش كأنه أحد
 فلاحيه ، غير أنه مالك لأقوات هؤلاء الفلاحين ، بل
 لحياتهم . ولكن هل تغيرت نفوسهم ؟
 الغريب في أمر هؤلاء النبلاء أنهم كانوا يجنحون إلى الأفكار
 المتطرفة . ومن المعروف في ذلك العهد أن فولتير كان أحب الكتاب
 الفرنسيين إليهم ، ولو أن مبادئ فولتير طبقت عندئذ في روسيا
 المقدسة ، أو لو أن آراءه وصلت إلى أتباعهم ، لحبت العاصفة
 وحرقتهم تحريقاً .
 وإنه لمن الظواهر التي تعد من مضحكات القدر أن

ينشر فولتير في القرن الثامن عشر آراءه فتتغلغل في الشعب الفرنسي وتهزه هزاً وتكون من عوامل الثورة الفرنسية التي قضت على النبلاء ، وأن يتخذ نبلاء القيصرة كاترين ثم من بعدهم نبلاء اسكندر الثاني ونقولا الأول من آراء هذا الكاتب الفرنسي ملهاة يقطعون بها أوقاتهم ويتحدثون بها بين الكؤوس .

هذه صورة من حياة النبلاء الروس ، أحب الأحاديث إليهم ربما كانت أحاديث الثورات والانقلابات ، وأبعد ما يفكرون فيه أن تقوم مثل هذه الثورة ، وأن تحدث مثل هذه الانقلابات في بلادهم . أما الأخطار التي تهدد حياتهم فلم تكن أكثر مما قد يصيبهم في الحروب عند ما يقومون بخدمة الجيش . ولم يكن النبلاء الروس ليبخلوا بدمائهم في سبيل بلادهم ، وليس لهم من مطمح أكبر من مراتب الدولة أو مراتب الشرف في الجيش .

هذا هو نمط المعيشة التي كان يعيشها الكونت نقولا تولستوى صاحب الضياع الواسعة في إقليم « تولا » وصاحب القصر الكبير في « اسنايا بوليانا » والنبيل من أعرق الأسر الروسية حين ولد له في الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٢٨ « ليف » أي ليون تولستوى ولده الرابع .

نشأة

في هذا القصر الكبير نشأ «ليون» وترعرع مع إخوته الثلاثة الذين يكبرونه سنًا، في رعاية والده الكونت نقولا في حضانة قريته تاتيانا، وقد قامت من الأطفال مقام الأم التي لم يكده «ليون» يعرفها إذ توفيت بعد وقت قصير من مولده. وكان ليون يحيا حياة أطفال النبلاء، يحد الغرف الفسيحة تقطعها قدماء الصغيران جريًا، والحقول الواسعة والغابات يرتع فيها تحوطه عيون الخدم والمراضع، إذا شكا البرد فهناك الدثار الدافئ من الصوف السميك، والكأس الساخنة من منقوع الشاي. المغلى في «السموفار»، وإذا جاع قدمت إليه الفطائر سريعًا. ثم هنالك المثقف الألماني الذي جئ به خاصة لتهديب إخوته وتعليمهم المبادئ الأولية، وتعليمه هو بمجرد أن يستطيع تلقى الدروس. تلك حياة ليون الصغير، في السنوات الأولى من زمن الطفولة بين إخوته وبين ذلك الحشد من الناس الذين يسكنون قصر «اسنايا بوليانا» ويعيشون في كنفه، وهو حشد غريب حقًا: تجد

بينهم الخدم الذين يقومون بأعمال معينة ، والأتباع الذين لا يعملون عملاً معيناً ، وتجد الضيوف الذين كانوا غابرين فأقاموا ، وذلك الأبله الذى تقابله كثيراً فى القصص الروسية والذى يشعر نحوه الأتقياء من أفراد الأسرة بشفقة ممزوجة بشئ من الاحترام أحياناً والخوف أحياناً ؛ إذ يعتبره بعضهم من ذوى القربى عند الله وذوى الخطوة لديه تعالى ، وتجد أناساً آخرين تبعث إقامتهم على الاستغراب فى نفوس الناس فى أية بلدة أخرى من بلاد العالم ، ولكنهم فى روسيا ليسوا موضع الغرابة ، فهناك الفتاة ديموسكا ابنة أحد الجيران النبلاء وهو رجل لم يتزوج طول حياته . وهنا فتى يشاهد سائراً فى الضيعة أحياناً وهو يكبر أكبر الإخوة بست سنوات أو سبع ، وهو أقرب الإخوة شبهاً من أبيهم لأنه فى الواقع أخ لهم غير شرعى من فتاة فلاحه .

فى هذا الجوئنا الطفل وترعرع بين إخوته . فإذا كان شعوره عندئذ نحوهم ؟ إنه بلا ريب يحب إخوته جميعاً ولكن هذا الحب تمازجه مشاعر أخرى ؛ فهو يحترم نقولاً أكبر الإخوة ويحله إجلالاً وهو يميل إلى ديمترى ويشعر نحوه بعطف ، أما « سرج » فكان متعلقاً بحبه تعلقاً كبيراً قد يمازجه شئ من الغيرة لوسامته .

فى سنة ١٨٣٦ رأى الكونت نقولاً من واجبه أن يلحق أولاده بالمدرسة بعد أن انتهى عهد تعليمهم بالمنزل ، فقرر الانتقال

بهم إلى موسكو، واتخذ داراً كبيرة تتسع للأسرة ولخدمها وحواشيها؛ وانتقل هؤلاء جميعاً في موكب كبير إلى الدار التي اتخذها رب الأسرة وهم نيف وثلاثون نفساً ، وقد زودت هذه الدار بكل ما كانت تزود به دور سادة الريف من خيرات إذا سكنوا المدن ، ونقلت إلى الدار بعض الأبقار لكي تمد أهلها باللبن ! وكانت قافلة من الركائب تنقل إلى الدار في كل أسبوع ، مؤونة أهلها من زيت وخبز وخمر !

لم تمض سنة على الأطفال في المنزل الحديد بموسكو حتى فوجئوا بوفاة أبيهم الكونت نقولا ؛ إذ سافر لبعض الأعمال فمات في الطريق ، وانتقل الأطفال إلى حضانة جدتهم . على أنه لم تمض تسعة أشهر أخرى حتى توفيت الجدة ، فتولت عمتهم أمرهم وظل الأطفال إلى خريف سنة ١٨٤٠ في رعايتها . ثم شعرت العمة بأن نهايتها دنت فانتقلت إلى دير توفيت فيه ، وتولت عممة أخرى حضانتهم ، وهكذا اضطر الأطفال إلى الانتقال إلى بلدة « قازان » ذات الأبراج الترية ، والكنائس تعلوها القباب ، والمساجد ترتفع منها المآذن ، وفي تلك البلدة التي كان منظرها الخارجى أجمل كثيراً من عمرانها الداخلى ، أقام « ليون » ست سنوات كان لها أثر كبير في تكوينه .

لإنها السنون التي ينتقل فيها المرء من الطفولة إلى الرجولة . وكان

من قبل يعيش عيشة هادئة، فإذا به ينتقل إلى حياة صاخبة ؛
 إذ أن عمتهم وزوجها محبان للحفلات والمراقص والسهرات
 الليلية ، وذلك مما حمل الصبي ليون على الالتفات بنوع خاص
 إلى مظهره ، وأخذ يقارن بين صورته وجمال صورة أخيه سرج ،
 وكلما ساءل المرأة زاد يقيناً في دمامة صورته ؛ إذ يرى تينك
 العينين الرماديتين الصغيرتين ، وذلك الأنف الأقنى القصير ،
 وتينك الشفتين الغليظتين ، وظن أن الناس لا يمكن أن ينظروا
 لمثل هذه الصورة إلا بالكراهية ، فأحب أن يدفع هذه الكراهية
 بالكبرياء والتعاضم ، فأخذ يأتي بأفعال غريبة ، ففي يوم يخلق رأسه
 عليه يخفف من قبح صورته ، وأحياناً يتفنن في ترجيل شعره كي
 يبدو على ملامحه الحزن والأسى ، وتارة ينزع شعر حاجبيه كي
 ينمو الشعر كثيفاً ، ولكن هذه المجهودات لم تغن شيئاً .

وأخيراً عمد إلى القراءة يقبل عليها في نهم ويفكر تفكيراً طويلاً .
 وحاول أن يحل ألغاز الحياة والوجود والخلود والبعث والموت وغير ذلك
 من المشكلات ، ثم يعود يفكر في الوجود وجميع مظاهره ولا يعتقد
 إلا بوجود نفسه ، ويحاول أن يقوى من هذه النفس .

وتعثره نوبات يندفع خلالها في الملاذ اندفاعاً ، فيشرب الخمر
 حتى لا يكاد يفيق ، ويتهالك على النساء فتيات ومزوجات ،
 من بنات الأسر ومن طريدات المجتمع ، ثم لا يلبث أن يزهد

في هذه الأمور ويأخذ نفسه باللوم ، ويندفع في تأنيب نفسه وأخذها بالشدة .

في السادسة عشرة من عمره شعر في نفسه بالميل إلى الالتحاق بالسلك السياسي أو أن عمته رتبت له ذلك ، فعول على أن يوجه دراسته إلى ما يلائم المستقبل الذي رسمه لنفسه ، وأخذ يعد نفسه للالتحاق بكلية الدراسات الشرقية في جامعة قازان ، وأخذ يتلقى دروساً في لغات شتى منها اللغة العربية واللغة التركية ، وأقبل يستعد لامتحان الالتحاق بالجامعة ، ولم يكن النجاح من نصيبه في الامتحان الأول ، لضعفه في علمي التاريخ والجغرافيا ، ولكنه أعاد الكرة فنجح والتحق بالدراسات الجامعية . وكان طالباً متوسطاً لأنه كان كثيراً ما يغيب بذهنه عن الدراسة ، وكان يقبل إقبالا شديداً على ما يحب دراسته لا ما تجب دراسته ، ولم يكن محبوباً لغرابة أطواره ؛ فهو يندفع تارة إلى عشرة زملائه ويشاركهم في جدلهم وطمعهم ، وتراه طوراً متباعداً منقطعاً إلى نفسه . فلما جاء أوان الامتحان في نهاية السنة الأولى من دراسته أخفق في امتحانه ؛ فإن طريقته في الدراسة وإقباله على ما يجب وزهده فيما لا يجب ليس من شأنه أن يؤدي به إلى النجاح .

وكان هذا الإخفاق سبباً في عدوله عن الاستمرار في كلية اللغات الشرقية ، ولكنه كان لا يزال راغباً في الحصول على درجة

جامعية، فنصح له إخوته أن يلتحق بكلية الحقوق، وكانت هذه الكلية تجد أكبر الإقبال من أولاد الأعيان الذين يريدون أن يحصلوا على الدرجات الجامعية في سهولة، فإن أساتذتها حينئذ جماعة من الألمان الذين كانوا يتساهلون في امتحاناتهم آخر السنة بما لا يفعله أساتذة الكليات الأخرى. وانتقل تولستوى إلى دراسة القانون. على أن هذه الدراسة الجديدة لم تكن أكثر ملاءمة من الدراسة الأولى. وكان يقبل على مادة أو مادتين من مواد الدراسة غير أن ذهنه لم يكن ليقبل هذه الدراسة على أنها غاية في ذاتها ولقد وصف دراسته فيما بعد بقوله: «كنت في وقت ما طالباً يدرس القانون، وأذكر كيف وجدت لذة في السنة الثانية من دراستي عند دراسة نظرية القانون لا لمجرد النجاح بل لأني وجدت فيها تفسيراً لما كان غامضاً لدى وغريباً في حياة الناس ولا أزال أذكر كيف أني كنت كلما زدت نظراً في نظرية القانون كلما زدت يقيناً بخطأ هذا العلم أو أني لم أكن قادراً على فهمه. وبالاختصار ابتدأت أعتقد بعض الشيء أن أحد اثنين لا بد أن يكون بليداً جداً: إما نافولين مؤلف دائرة معارف القانون الذي كنت أدرس فيها، وإما أنا إذ كنت غير قادر على فهم كل ما في ذلك العلم من حكمة وكنت عندئذ في الثامنة عشرة ولا أعترف بغباوتي، فتقرر لدى أن دراسة القانون مستعصية على مداركي فأقلعت عنها».

الواقع أن الدراسة المقررة لم توضع لذهن فطر على البحث والعمل على استكشاف الأسباب الأولى للحياة ولقد حزر هذه النزعة فيه أحد الأساتذة فعهد إليه في أن يكتب فصلاً في المقارنة بين «روح القانون» لمونتسكيو والبيان الذي كتبه القيصرة كاترين للجنة التي وضعت القانون في عصرها. فأعجب تولستوى بهذه الفكرة، وأخذ يقرأ حول هذا الموضوع كل ما يقع بين يديه. لم يكن الشاب الذي وصفه أستاذ التاريخ الروسي بأنه كسول كسولاً، بل كان مقبلاً على القراءة يلتهم المؤلفين التهاماً؛ فقد قرأ قصص سو وديما وبول دي كوك وبعض مؤلفات سترن وديكنز وجو جولد وترجنيف وليرمنتوف وبوشكين وشيللر ولم يكتف بهذه الثروة الأدبية بل عكف على دراسة الفلسفة والاقتصاد السياسي والإنجيل، وقرأ مؤلفات هيجل، وأقبل على قراءة فولتير، ولكنه لم يتأثر به كثيراً.

ولعل أكبر رجال الفكر الذين كان لهم تأثير دائم فيه هو روسو فقد كتب في السنوات الأخيرة من حياته: «كان روسو أستاذاً لي منذ الخامسة عشرة من عمري؛ فروسو والإنجيل هما العاملان الكبيران المؤثران في حياتي». على أن تولستوى كان كريماً في الاعتراف بفضل المؤلفين عليه، فهناك فارق كبير بين آراء روسو وبين آرائه ولقد ذكر هو نفسه هذا الفارق حين أوضح أن

روسولا يعترف بالحضارة في حين هو لا يعترف بالمسيحية المزيفة .
 وفي مارس من سنة ١٨٤٧ أصيب تولستوى بمرض فنتقل إلى
 المستشفى وفيه . عاد إلى التفكير في حالته ، وأخذ يؤنب نفسه على
 حياة اللهو التي يعيشها ، وتذكر ما قرأه عن بنيامين فرانكلين
 الأمريكي الذي اعتمد تسجيل أخطائه يوميا في مذكرته ، فعول
 منذ تلك اللحظة على أن يقيد في مذكرات يومية كل ما يأتيه من
 خير أو شر ، ويسجل كل ما يدور بخلد عن حياته . ومنذ تلك
 اللحظة تكونت فيه هذه العادة ، التي لم يهملها إلا فترة قصيرة .
 ودراسة هذه المذكرات تلي ضوءاً كبيراً على حياته الطويلة ، وتظهر
 لنا وجوه النشاط العظيم في ذلك العقل الجبار ، ومحاولاته المتكررة
 للتوفيق بين أعماله ونياته .

في تلك السنة قرر تولستوى أن يترك الجامعة والقانون ، وكان
 أخواه ديمتري وسرج قد أتما دراستهما . وحدث أن قسمت ثروة
 الإخوة فيما بينهم ، فكان من نصيبه ضيعة اسنايا بوليانا وضيعات
 أخرى تبلغ في مجموعها خمسة آلاف وأربعمائة فدان ، وفيها
 ثلاثمائة وخمسون من الفلاحين الأتباع مع أسرهم .

بدأ يشعر بتبعته نحو هذه الضياع الواسعة ، ولعله أخذ يمل
 عيشة اللهو في فازان . ولا زيب في أنه مل الدراسة الجامعية
 فعزم على السفر إلى ضيعته ، وقد امتلأت نفسه بالآمال الواسعة

والآراء الخيالية في الإصلاح ، إصلاح نفسه وإصلاح فلاحه .
 فما إن وصل إلى قصره حتى أخذ ينشئ الدور النموذجية للفلاحين
 ويفتح المدارس لتعليم أبنائهم ، ويعظهم ويصف لهم كيف يريد
 أن يعمل لخيرهم ، فإذا كان نصيبه ؟ لقد وصفت هذه الدور
 النموذجية بأنها أشبه شئ بالسجون لأن الفلاح لم يجد فيها ما ألفه ،
 وضاق الفلاحون بذلك السيد الذي يأبى إلا أن يجرمهم
 مساعدة أبنائهم في أعمال الحقول ، ولم يروا في قوله إنه يعمل
 لخيرهم إلا حيلة جديدة لبيتز من أقواتهم الضئيلة أو من جهودهم .
 فهل وجد السيد الذي يعمل لخير الفلاحين من غير أن يكون في
 ذلك غم لنفسه ؟ ثم ذلك الفريق من رجاله الذين كانوا يتصرفون
 في أمور الأرض باسمه هل يقنعون بتدخل السيد ؟ وهل يقنعون
 بالكسب الحلال ويقلعون عن الوسائل العدة التي كانوا يبتزون
 بها أموال الفلاح ؟ لا شك أنهم يقيمون الصعاب في طريقه ،
 وهو لا يلبث أن يشعر بهذه الصعاب فيمل هذا المسعى ويستولى
 عليه الفتور فيما أخذ به نفسه . وكان يجاوره في ضيعته أخوه
 سرج وهو يعيش عيشة تمتع وتهتك مع فتاة غجرية ذات صوت
 خللاب ؛ فأخذ الفتى يتردد على دار أخيه وبين صحب الغناء
 والكؤوس ينسى نفسه ويمضي أياماً في لوه ثم يعود إلى نفسه وإلى
 مساعيه في الإصلاح .

غير أنه أخذ بشعر مرة أخرى بالقلق لعدم إتمامه دراسته، فعول على الذهاب إلى بطرسبرج عاصمة الدولة ، إما ليتم هذه الدراسة أو ليجد عملاً في خدمة الحكومة وفي عاصمة الدولة وجد حياة تختلف عما عرفه في موسكو وقازان . ففيها الناس ، كما بدا له ، جادون يسعون للعمل . ولكنه لم يلبث أن استكشف أن الجدد في العمل يدعو إلى التفتن في ألوان اللهو ، وانغمس في الخمر والقفار والنساء إلى أن عاوده تأنيب الضمير ، فهرب من المدينة إلى ضيعته .

خطر لأخيه الأكبر نقولا ، وكان في زيارته ، أن يستصحبه معه إلى بلاد القوقاز وهو ضابط ملتحق بالجيش ، ووافق تولستوى على الفكرة ، وسافر مع أخيه في طلب حياة جديدة ، بل قد يكون في عمل جديد .

٣

الشباب

رحل تولستوى مع أخيه قاصداً بلاد القوقاز ، ولم يسافرا في القطار بل اتخذوا باخرة تسير بهما في مياه القوبلجا في نزهة نهريّة جميلة وتحملهما نحو تلك البلاد الواسعة التي استخلصها الروس في أوائل ذاك القرن من يد الأتراك الفاتحين ، فأذكي استخلاصها

حماسة عظيمة أثارت قرائح كثير من الأدباء . ولم تكن القوقاز حتى منتصف القرن التاسع عشر قد خضعت خضوعاً تاماً بل كان أهل الجبال يتمتعون على الروس كما امتنعوا على الأتراك من قبل وهم قوم أحرار لا يريدون أن يستبدلوا سيداً بسيد . فلم يستطع الروس إلا أن يتخذوا قواعد في الجبال يقيمون فيها حرساً من الجنود الذين يحتفظون بمظهر السلطان للدولة . وفي تلك البلاد أقام تولستوى ثلاث سنوات في رفقة أخيه أولاً ثم رجلاً من رجال الجيش . وإلى « ستاروجلافسك » إحدى القواعد ، قصد الشاب تولستوى بصحبة أخيه حيث أقام في خيمته لا يعمل شيئاً ولا يجد ما يلهيه في وحدته ولم تكن المنطقة التي نزل فيها مما يحقق أحلامه وكان ينتظر أن تكون هذه البلاد على جانب عظيم من الجمال فاذا بها عارية عنه ، وأعرب عن حالته النفسية بقوله : « كيف سقطت على هذا المكان ؟ هذا ما لا أعلمه ؟ وكيف جئت إلى هنا ؟ هذا ما أجهله » .

ولكنه ما لبث أن انتقل إلى جهة أخرى من القوقاز هي « ستاريورت » ذات منظر جميل ، فيها عيون المياه الحارة يجلبها الضباب ، والطواحين منصوبة على مجارى الماء الواحدة تعلو الأخرى ، وتأتى نساء التتر لغسل ثيابهن يستعملن أقدامهن في هذا العمل ، ومنظرهن في تجمعهن ، على وصفه ، أشبه ببيوت

النمل والنمل من حولها تتحرك ، وكان يقضى الساعات الطويلة وهو يتأمل هذا المنظر كما وصف في رسالة لحالته . ولكنه لم يقل لها أكان يعجبه مجرد منظر تلك الجموع التي تتحرك كالنمل ، أم كان يهمه منظر الفتيات في غدوهن ورواحهن بملابسهن الشرقية ذات الألوان الزاهية وما تخفيه أو ما تظهره من أجساد تتحرك تحت تلك الثياب ؟

أثرت تلك الوحدة بين المناظر الرائعة تأثيراً خاصاً في نفس ذلك الشاب الذي عرف الملذات وانغمس فيها انغماساً ، فشرب من الخمر حتى لم يبق من مزيد ، وقامر حتى خسر أكثر من مرة كل ماله ، وعاشر النساء من طبقات مختلفة ، فعرف الأميرات ونساء الغجر ، فهو لم يتأثر بهذا الجمال الطبيعي كما يتأثر الشعراء ، وهو يسخر من الشعراء الذين « يزعمون أن الجبال كأنها تتحدث إليهم ، وأن العصفير تقول هذا أو ذاك ، وأن الأشجار تومئ إليهم من بعيد » بل هو يشعر وسط هذه الوحدة بشعور آخر، فهو يخلد إلى نفسه يحاسبها عما فعلت في ماضيها : هل عيشة موسكوب وطرسبرج عيشة مرضية : تلك المجتمعات الراقية البراقة التي حرص الشاب تولستوى على أن يظهر فيها حيث يجتمع بعليّة القوم من رجال ونساء في أحدث الثياب وأكبر مظاهر الغنى إما ليتحدثوا أو ليرقصوا أو ليستمعوا إلى الموسيقى أو ليشاهدوا المسرحيات في دور

التمثيل الفخمة ؛ تلك السهرات الطويلة أمام مائدة خضراء حيث يصل الرجال الليل بالنهار في أيديهم الورق ، وفي صدورهم الأمل في الربح ؛ تلك الاجتماعات السرية في السكن الخاص الذي اتخذه للخلو بالنساء كما هي عادة النبلاء ، هل كانت هذه العيشة مرضية ؟

عجيب أن نرى الشاب حتى في تلك السن ، يحاسب نفسه حساباً عسيراً ، لا لكي يقلع عن عاداته ، فهو لم يقلع بعد ذلك ، بل لأن طبيعته مزدوجة يعمل جانب منها عملاً ، ويرقبه الجانب الآخر مستحسناً أو مستهجناً دون أن يتدخل في عمله .

على أن الشاب تولستوى لم يكن ليترك طويلاً إلى تأملاته في تلك الجهة السحيقة الهادئة من أرض القوقاز فما لبث أن نقل إلى جهة أخرى ثم انتقل بعد قليل إلى سباستبول حيث كانت تستعر معركة الدول التي رأت أن تؤيد تركيا في قتالها مع نقولا الأول في حرب القرم ، وأن تحدد من مطامع العاهل الروسي ؛ وحينئذ استطاع تولستوى أن يرقب أعمال الجنود عن كثب ، ولعله في ذلك المكان بدأ تقديره الحقيقي للجندي البسيط من الفلاحين الذين كانوا أتباعاً لِسادة الأرض . ففي تلك الأصقاع عرف هؤلاء الجنود في معارفهم الداكنة اللون وقد مر بهم كورنييلوف القائد وقال لهم . « يجب أن تعرفوا كيف تموتون يا أولادى ، هل تعرفون

كيف تموتون ؟ : وخرج دوى صوت خافت من تحت تلك
المعاطف الداكنة والحراب اللامعة : « أجل سنموت » وفي تلك
الأصقاع عرف ما يلقاه هؤلاء الجنود من إهمال القيادة العامة
ومن عبثها وإسرافها في دماء هؤلاء المساكين ، حتى قال تولستوى
إن هؤلاء الجنود يبلغون مرتبة القديسين ، ولكنه مع ذلك لم يكن
يتورع عن صفع هؤلاء القديسين إذا ما خالفوا أمراً من أوامره !
كان تولستوى يعمل في إدارة فرقة مدافع ، وهناك استطاع أن
يتذوق حقيقة الحرب وما فيها من أهوال مخيفة ، وكلما ترك مركزه
للراحة يرسل رسائل مطولة عن هذه الحياة ، ولم تعد تلك الرسائل
مجرد أوصاف خيالية ، بل هى مجموعة مشاهدات واقعية يحل
فيها روح الفرد من المقاتلين وروح تلك الجموع المختلفة من
الرجال. على أنه لم يلبث طويلاً حتى دعى إلى المؤخرة. ولعل ذلك
تم بوساطة أقربائه ، وصار بعيداً عن الأخطار. فكان يقضى
وقته فى المقامرة وقد أقبل عليها إقبالا شديداً، وحاول أن يبتدع
وسائل للربح ، على أنه كان يخسر أموالاً كثيرة ، وفى ذات ليلة
خسر ثلاثة آلاف وأربعمائة روبل .

وكان مع ذلك يدعى أحياناً مع فرقته إلى مواقع القتال
فاشترك فى موقعة « تشويرنايا » حيث خسر الروس خسارة بالغة ،
واشترك فى الدفاع العنيف عن موقع مالاكوف حين سقطت

سياسي بول في اليوم التالي في أيدي الأعداء . وكان تولستوي قد تأثر بسير الحوادث فتطوع في المحاولات الأخيرة للدفاع . ووصف تأثير سقوط المدينة عليه في رسالة له يقول فيها : « لقد بكيت عند ما رأيت النار تعبت بالمدينة ورأيت الأعلام الفرنسية تخفق فوق معاقلها » .

إنهزات الخطوط الروسية ، فانتقل تولستوي مع فرقته متراجعا نحو الشمال ، وأخذ في هذه اللحظة يفكر في مستقبله وإذا بهذا السيد الذي أريد به أن يكون رجل حرب يجنح إلى صناعة الأدب ، وإذا به يسطر في يومياته في ذلك الوقت : « إن مستقبلي هو في الأدب . يجب أن أكتب وأكتب . ومنذ الغد سأعمل طول حياتي في كل شيء الشعر ، والدين ، والآداب ، أو أترك كل شيء » .

٤

أديب

عند ما قرر الكونت تولستوي أن يتخذ من الأدب مهنة كان قد وجد من قبل ميلا شديداً إلى الأدب ، وأقبل على الكتابة لاسيما في تلك العزلة ببلاد القوقاز . ولقد ذكرنا كيف أكتب على قراءة الآداب الأوروبية منذ صغره ، فما إن شب حتى تعرف إلى

الأدباء الروس وخالطهم ، ومع ذلك تردد قبل أن يقدم على الكتابة . فالنبلاء من أمثاله كانوا لا ينظرون في ذلك الوقت إلى الأديب نظرة الاحترام والتقدير . فلما أقدم على نشر كتابه الأول لم يذكر اسم المؤلف ، وهذا الكتاب هو قصة « الطفولة » التي ظهرت في مجلة شهرية في سبتمبر من سنة ١٨٥٢ وهو لا يزال وقتئذ في جيش القوقاز ، ولم يجرؤ على نشر هذه القصة حتى أعاد كتابتها أربع مرات ، وهي عبارة عن مذكريات طفل في العاشرة من عمره من أسرة عريقة يصف فيها حياته المنزلية ، فيصف مربييه الألمانى ، وأمه الحنون وإخوته وأخواته . ومربياتهم ، وما يعملونه في جدهم ولعبيهم ، وأحلام الطفولة وآمالها ، ثم ما انتاب أمهم من مرض ووفاتها ، وما انتاب قلوبهم الصغيرة من حزن لم يلبث مرح الطفولة أن محاه ، كل ذلك في سرد بسيط قوى أخاذ .

عند ما ظهرت هذه القصة في المجلة حيا فيها أكبر أدباء الروس وفي طليعتهم ترجميف ودستويفسكى أدباً رائعاً والواقع أنها على قول الأمير « ميرسكى » مؤرخ الآداب الروسية هي الحد الفاصل بين القصة القديمة والحديثة ، فإذا تلوناها خيل إلينا أننا نقرأ لكاتب من كتاب القصة في القرن العشرين ، وخيل إلينا أننا نقرأ قصة لأندريه جيد ، أوللورنس ، فهو أول من شرح الدخائل النفسية التي تسيطر على أشخاص قصته شرحاً مستفيضاً

كما يفعل الكتاب الحديثون ، وهو أول من اهتم اهتماماً شديداً
بسرده الحوادث سرداً فنياً .

ولا ريب في أن الأدباء عند ما أثنوا على قصته لم يقادروها
ندرها الحقيقي ، ولم يعرفوا أنه الكتاب الأول لأديب دخیل ليس
من طغمتهم ، نقل الأدب الروسي من عصر إلى عصر ، وأنه
سوف يكون له في الأدب العالمي تأثير لا يمكن أن يبلغوه .

أما بالنسبة لتولستوى فإن نشر هذه القصة صاحبه حادث سيئ
لديه ؛ إذ ذكر خطأ في النشر أنها صفحات من حياة مؤلفها ،
وهذا غير حقيقي ؛ ففي تفاصيلها من التباين ما لا يتفق مع حياة
تولستوى في طفولته ؛ فهو لم يكد يعرف أمه . أما بطل قصة الطفولة
فإنه عاش في رعاية أمه متمتعاً بخنانها حتى الثانية عشرة من
عمره . ومع ذلك لم يكن ثمة شك في أن العواطف التي يبديها
« نكولنكا » والأفكار التي دارت بخلده في القصة ، هي عواطف
وأفكار عرفها تولستوى عند ما كان صغيراً . وقد ذكرنا هذا الحادث
لأن الخطأ لا يزال يتكرر حتى الآن ، ولا يزال بعض الكتاب
يظنون أن قصة الطفولة هي قصة تولستوى نفسه .

في هذه الأثناء حين كانت هذه القصة حديث أهل بطرسبرج
وهي تنشر تباعاً في المجلة الشهرية كان المؤلف لا يزال في القوقاز يشهد
الأدوار الأخيرة من الهزائم التي منيت بها بلاده حول سياستبول

ويرى مصرع الجنود الروسيين وما يبدونه من شجاعة لاغناء فيها ،
ويرى ما يبدية رجال القوزاق من بطولة نستدعى الإعجاب ،
فترسم في نفسه صوراً ثابتة تبرز فيها الحقيقة بالخيال ، وهو يدون
تلك القصص في صور نشرها فيما بعد في مجموعة القصص المسماة
« القوزاق » .

فاذا عاد إلى بطرسبرج وجد نفسه عالماً من أعلام البيان
يتسابق الأدباء إلى التعرف إليه ، ولم يكن تولستوى حينئذ ، ولم
يكن في حياته دائماً بالرجل الذي يتوارى من الشهرة ، ويخجل
لها ، لذلك نراه يقبل في منهم على الأندية والجمعيات الأدبية .
وكانت تلك الجمعيات تنقسم إلى فريقين : فريق يرى
احتذاء أوربا الغربية وآدابها ويرى في ذلك السبيل القويم لنهضة
بلاده ، والفريق الآخر يرى التمسك بأهداب الماضي والاحتفاظ
بذلك الطابع الذي يميز الروح السلافية بما فيها من تلك الترعات
العنيفة التي لا تزال تضطرم في نفس لم تهذبها قيود المدنية .
ومن الغريب أن يكون من أشهر أدباء النزعة السلافية
دستوفيسكي ذلك الأديب الذي ذاق آلام النفي والسجن وعرف
الفاقة والجوع ، ولكنه لا يمكن أن يكون قريباً إلى نفس تولستوى
المتحدر من أغرق أسر النبلاء ؛ فهو يعيش في عالم آخر غير العالم
الذي يعيش فيه رجل ينعم بالضيايح الواسعة وآلاف من الفلاحين .

أما زعيم الفريق القائل بالاتجاه نحو أوروبا الغربية فهو إيفان
ترجنيف الأرستقراطي الذي يمتلك أراضي واسعة وفلاحين ، وهو
يقضى أكثر أوقاته بعيداً عن وطنه حيث يقيم في بلاد يراها أكثر
تمدناً من هذا الوطن لا سيما باريس .

وقد توطدت الصداقة بين تولستوى وترجنيف وكان يلذ
لتولستوى أن يغشى داره ، على أنه مما يشك فيه أن ترجنيف كان
يرحب بذلك الأديب الجندى ، فترجنيف كان أنيق المظهر شديد
التمسك بآداب السلوك التي عرفها واعتادها في الأندية الباريسية
حيث اعتبره الأدباء الفرنسيون واحداً منهم ، مع أنهم شديداً
الحرص على عدم الاعتراف بالأجانب والابتعاد عنهم ، أما
تولستوى فكان لا يعرف من آداب السلوك شيئاً فكان يقبل على
الخمر يكرع منها في نهم ، فإذا تحادث أو تناقش صاح صاحباً
مربداً بينما المضيف يرتعد فرقاً وإشفاقاً على أثاث منزله .

لعل تأثير ترجنيف كان الحافز له على السفر في رحلة لزيارة
بعض البلاد الأوروبية ولزيارة باريس بنوع خاص ، فقام بالقطار
إلى فرسيفيا ثم مر ببرلين ووصل إلى باريس حيث مكث عدة
أشهر يحول في أنحاء عاصمة الامبراطورية الثانية ويستمتع بكل
ما يستمتع به الأجانب في تلك المدينة سواء في ذلك العصر أو في
غيره من العصور ، فهو يقول في رسالة إلى صديق « لقد قضيت

حتى الآن شهرين في باريس، ولم تلح لي اللحظة التي أنتهى فيها من الاستمتاع بتلك المدينة أو أفقد فيها ما أجده من سحر. ولقد تبين لي الآن أنى كنت على جهل مقيم لم أشعر به كما شعرت به الآن، وأن مجرد الشعور بذلك لما يبعثنى على أن أهنى نفسي بالقدوم إلى هذه المدينة لا سيما أن هذا الجهل منى يمكن إصلاحه الآن. وما أشد ما أشعر فيها من جمال الفنون الجميلة في قصر اللوفر وقصر فرساي ومعهد الأوبرا والحفلات الموسيقية والمسارح والمحاضرات في الكلية الفرنسية والسربون وتلك الحرية الاجتماعية التي لا نجد لها أقل أثر في روسيا . . . »

ومع ذلك عاد تولستوى وهو في سن الكهولة إلى هذه الذكريات فيما بعد، وقال أن هذه الزيارة تركت في نفسه أسوأ الأثر !

٥

قلق وزواج

أشرف تولستوى على العقد الرابع من حياته وهو يعيش وحيداً لم يتخذ له شريكة في الحياة، ومع ذلك عرف الحب أكثر من مرة، وأحيا آمالاً في قلب أكثر من فتاة، ولكنه كان دائماً ينكص في اللحظة الأخيرة ويفر فراراً غير شريف.

لم يكن ذلك عن زهد في الزواج أو عن عقيدة في الاحتفاظ بحريته ولا عن خجل في طبيعته . فالزهد في الزواج لم يخطر له ، لم يكن هو في ذلك الوقت ممن يرون في الزواج قيداً للحرية ، والخجل ليس من صفات ذلك الرجل الذي أمضى الكثير من الليالي الصاخبة بين الخمر وبنات الهوى ، ولكنه على الأرجح نتيجة لنفس قلقه غير ثابتة تتبين مظاهرها في الكثير من تصرفاته في كل أدوار حياته . ومن مظاهر هذا القلق في ذلك الحين اعتقاده الراسخ بأنه مصاب بالسل ، وتأصل هذا الاعتقاد في نفسه منذ سنوات ، وما زاد في اعتقاده إصابة أخيه نقولا وإصابة غير واحد من أقاربه بهذا الداء . وفي البلاد الشديدة البرودة كروسيا يتعرض الناس للإصابة بالأمراض الصدرية في سهولة ، ولكن ليست كل إصابة هي نتيجة لهذا الداء الويل .

وما زاد في مظهر القلق لديه رحلته الأولى إلى فرنسا وسويسرا ، إذ لا بد أنه قارن بين حالة تلك البلاد التي عرفت الحرية ، وبين بلاده وما فيها من سلطان مطلق يقضى على أى مظهر من مظاهر الحرية بيد من حديد . لذلك نراه في السنوات الخمس التي تلت تلك الرحلة يعيش قلقاً متنقلاً بين قصره في اسنایا بوليانا حيث يمضى الصيف ، وبين داره في موسكو حيث يقضى الشتاء ، وبين هذا وذاك زيارات قصيرة لبطرسبرج ، يلتقي فيها ببعض

الأدباء وعلية القوم من أقاربه أو بالأحرى قريباته ، وقد اتصل في ذلك الوقت بخمس منهن على أن أقوى علاقة كانت مع الكونتيسة الكسندرا تولستوى الوصيصة في البلاط ، وهى التى ظلت طول حياتها تخلص له الود ولربما كانت تضمم له الحب . وهو يكتب إليها إذا ما سافر الرسائل الطويلة ، ويلقبها على سبيل المداعبة بالحدة لشدة حننها عليه وتشدها فى النصيحة له ، وفى الرسائل التى كتبها فى ذلك الوقت يعبر عن قلق نفسه وحيرتها ؛ فهو يقول ذات مرة « إن الإنسان يجب ألا ينشد السعادة بل ينشد الخير » ويقول فى رسالة أخرى « إن هدوء النفس هى حال النفس غير الآمينة » . وفى تلك الآراء نرى جانباً بارزاً من فلسفة تولستوى وآرائه فى الحياة تظهر قبل أوانها .

فى سنة ١٨٥٨ عن لتولستوى أن يقوم برحلة إلى غرب أوروبا فسافر بالباخرة من مدينة بطرسبرج الى شتت من بلاد المانيا ومنها قصد برلين ، وصحبه فى هذه الرحلة بغص إخوته وكان من بين الأغراض التى توخاها من رحلته زيارة طبيب مشهور فى تلك المدينة للتأكد من حقيقة مرضه . وزار هذا الطبيب بصحبة هؤلاء الإخوة والأخوات ، ففحصهم وأعلن براءتهم من مرض السل الخبيث ، إلا أنه حكم عليهم بأن يذهب كل عضو من أعضاء الأسرة إلى بلد من بلدان الاستشفاء غير الذى وصفه للآخر ،

فكان على تولستوى أن يتم رحلته وحيداً .
على أن تولستوى كانت له أغراض أخرى من هذه الرحلة ،
فقد أكتب كما ذكرنا في بدء حياته على دراسة مؤلفات جان جاك
روسو الكاتب والفيلسوف الفرنسى ، وأعجب بآرائه في التعليم
ونشر في صباه مقالا عنه ، كما حاول إقامة مدرسة نموذجية في
ضباعه الواسعة لتعليم النشء من أولاد الفلاحين ، فلم يوفق
وأقفلت المدرسة وعاد مشروعه بالاختفاق ، وانصرف إلى أمور
أخرى . وفى تلك الفترة من حياته عاودته حمى التعليم مرة ثانية
وأحب أن يدرس النظم التى تتبع فى عاصمة البلاد البروسية ،
فقصد معاهد العلم العالية حيث واطب على محاضرات درويسن
المؤرخ المعروف ، ومحاضرات بوارييمون العالم الفسيولوجى ، ثم
زار مع أحد الطلبة مدارس العمال ومدارس صغار التلاميذ ،
فأعجب إعجاباً شديداً بمدارس العمال لما رآه من حرية المناقشة
بين المعلم وطلبه ، ولكنه لم يعجب بمدارس الأطفال فى ألمانيا
إذ رأى فيها شدة ونظاماً لا ينبغى فى رأيه أن يتبع مع صغار
الفلاحين .

وكان عليه فى تلك الرحلة واجب عائلى هام آخر ، هو زيارة
أخيه الأكبر الذى أصيب حقيقة بالسل وهو فى إحدى مدن
الاستشفاء الألمانية ، وبلغ مرضه حالة أقلق أفراد الأسرة

فصارت تاح على تولستوى فى أن يذهب لزيارة أخيه ، ونراه يؤجل ويؤجل تلك الزيارة جرياً وراء دراسته للموضوع الذى شغل فكره . ولقد اضطر أخوه فى آخر الأمر إلى أن يسافر إلى مونيخ لرؤيته على ما به من مرض . فلما تقابل الأخوان ورأى تولستوى حالة أخيه سافرا معاً إلى جنوب فرنسا التماساً للدفع والشمس ولم يمض غير خمسة وعشرين يوماً حتى مات الأخ بين ذراعى أخيه . تلك أيام ظلت منقوشة فى ذهن تولستوى وكم من مرة أمدته بصور خالدة فى مؤلفاته وكم من مرة ردد فيها ذلك المنظر : عندما كان يعاون أخاه على القيام لشدة ضعفه فكان الأخ يستاء لذلك ولكن جاء اليوم الذى صار الأخ يقبل هذه المعونة دون تردد . وفى مرة قال له بعد أن عاونه « شكراً لك أيها الصديق » فهو يبحث ويبحث عن معنى كلمة الصديق فى هذه الحالة ؟ هل كان أخوه يبتعد عن أمور هذه الأرض حتى لم ير فيه غير الصديق ؟ وهو يذكر تلك اللحظة الأخيرة عند ما فتح الأخ عينيه وتلفظ بسؤال ... ما هذا ؟ ثم أطبق فيه إلى الأبد . ما أكبر هذه العبارة سيأتى اليوم الذى نساأل فيه جميعاً ما هذا ؟

استأنف تولستوى رحلته وهو مثقل بهذه الأفكار المحزنة ولكن ذلك لم يمنعه من دراسة طرق التعليم فى مرسيليا ثم شعر فجأة برغبة فى التغيير ، فسافر إلى إيطاليا حيث فلورنس وروما و نابولى ثم

عاد بعد ذلك إلى باريس حيث قابل ترجنيف صديقه ومنها رحل إلى لندن ، وهناك كان يرتدى ملابس من أحدث الأزياء ويبالغ في التأنق ، وأخذ يتردد على المشاهد المألوفة في ذلك العهد كمنازلة الديكة كما أخذ يزور المدارس المنشأة لأولاد الفقراء ، وذهب إلى البرلمان الإنجليزى حيث حضر خطبة للورد بالمرستون ، وزار أكثر من مرة هرزن الفيلسوف الرومى والثورى المعروف الذى كان يقيم فى لندن ومنها يرسل النشرات إلى بلاده .

بعد فترة قصد تولستوى بلاد البلجيك وفيها علم بالنبا العظيم الذى اهتزت له أرجاء روسيا والعالم ، وهو صدور مرسوم القيصر بتحرير الفلاحين فى ١٩ فبراير سنة ١٨٦١ ، وكان المتبادر الى الذهن أنه سيسرع فى العودة الى بلاده عند سماع هذا النبا ، فهذا المرسوم يحقق فكرة دارت بخلده منذ سنين وأراد أن يحققها قبل أن يأخذ القيصر إسكندر الأمر بيده ، والآن وقد تحققت فكرته لم تأخذه الحماسة بل ظل يتابع رحلته على مهل .

مكث فى البلجيك زهاء شهر قابل خلاله الفيلسوف برودون وكتب فى أثنائه قصة بوليكوشكا من قصصه الشهيرة . ثم أخذ فى العودة إلى بلاده عن طريق ألمانيا ، فزار فيمار وأستاذن الدوق فى زيارة منزل جيته ثم عرج على « بينا » وهناك تعرف إلى شاب ممتخرج فى كلية العلوم رأى فيه الشاب الصالح

لأن يكون معلماً بالمدرسة التي عزم على افتتاحها ، بل رأى فيه «جوهرة نادرة» فاتفق معه ومع أهله على أن يسافر معه بل أن يسبقه إلى ضيعته وزوده بالمال اللازم للسفر في الحال إلى روسيا وتابع هورحلته . وفي درس دن علم أن هذا الذي اسماء «الجوهرة النادرة» قد احتسى الخمر حتى ضاع صوابه وخسر كل ما أمده به من مال .

عاد تولستوى إلى ضيعته في اسنايا بوليانا فإذا أمامه عمل جديد اقتضاه صدور مرسوم تحرير الفلاحين . فالمرسوم يقضى بتعيين حكم في كل إقليم يقوم بالنظر في المنازعات التي تنشأ بين الملاك والفلاحين . عند تحريرهم ووقع الاختيار على تولستوى . وقد احتج الملاك على اختياره لما يعلمونه من نزعة الغريبة نحو تأييد الفلاحين . ولكن الحكومة أقرت تعيينه وأقبل هو على عمله في نشاط واهتمام غير ، أنه لم يلبث أن مل هذا العمل ، فإن أحكامه كانت لا تقبل من الملاك كما أن الفلاحين انتهزوا فرصة عطفه عليهم فصاروا يرهقونه بالمطالب والشكوى ، وكان عمله يتطلب قراءة أوراق كثيرة وعقود مملّة ، ثم أنه كان في دخيلة نفسه يبغي الاستفادة من هذا العمل بأن يجد فيه مادة لكتاباتاته ، ولكنه لم يجد إلا القليل . وعلى ذلك استقال بعد حين وانصرف إلى تحقيق نظرياته في التعليم وعاد إلى فتح مدرسته .

اقتبس تولستوى نظرياته من قراءة روسو ولكنه ذهب فيها مذهباً متطرفاً كعاداته في أعماله . فروسو يرى أن الإنسان فطر على الخير ، وتولستوى يستنتج من ذلك أن البلاد الروسية المتأخرة عن أوربا هي أقل إصابة بمساوئ الحضارة ، وهي إذن صفحة بيضاء يستطيع المربون أن يخطوا عليها ما يريدون من وسائل التربية الصحيحة ، وأن أطفال الروس هم أكثر امعاناً في الطهارة من غيرهم من الأطفال .

ومع كل هذه النتائج البعيدة يأتى تولستوى في مجال العمل فيذهب إلى أبعد منها ، فهو يرى أن تلاميذ مدرسته هم الذين يعلمون مربيهم طريقة الدرس ، وينبغي ألا يجبروا على الذهاب إلى المدرسة بل يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم عن رغبة لا رهبة ، بغير كراسة ولا كتاب ، كأنهم ذاهبون إلى عيد من الأعياد .

انشئت مدرسة اسنايا بوليانا فما لبثت أن افتتحت مثيلات لها في أنحاء المقاطعة . وكان من الطبعي مع كثرة هذه المشاغل ألا يؤلف تولستوى شيئاً في تلك السنة وأن يرهق بالأعمال حتى ساءت صحته واضطر لأن يسافر في الخريف إلى جنوب روسيا للاستشفاء ، وقد ظن أنه في هذه المرة أصيب بالسل حقيقة .

في أثناء غيابه حدث حادث كان له أثر كبير في نفسه ، ذلك أن رجال الشرطة هاجموا قصره بأمر من الحكومة وظلوا يبحثون

وينقبون في أوراقه وقد أزعجوا أهل القصر ولكنهم لم يجدوا ضالتهم وهذه أول مرة حصل فيها اصطدام بينه وبين الحكومة .

فما إن عاد من استشفائه وعلم بالأمر حتى أرسل بالشكايات والعرائض إلى القيصر ، وأخذ يكتب رسائل شديدة اللهجة إلى صديقه وقريبته الكونتيسة الكسندرا الوصيغة بالبلاط ، وأخذت الكونتيسة تطيب من خاطره وقد أوصلت شكايته للقيصر ، الذي أمر حاكم الولاية بأن لا يتعرض للكونت تولستوى بسوء وظهر بعد سنوات طويلة أن رجال الشرطة كانوا يمحثون عن مطبعة سرية ظنوا أن تولستوى يمتلكها وأنها طبعت منشورات وزعت في ذلك الحين فيها نقد للحكومة وتجريح لأعمالها ، على أن تولستوى كان في ذلك الحين يفكر في مشروع آخر هو الزواج .

لقد أقدم منذ صباه أكثر من مرة على الزواج ثم كان يحجم في اللحظة الأخيرة إحجاماً لا يليق بمركزه ولا بالفتاة التي كانت موضع تفكيره ، ولكن في هذه المرة يظهر أنه كان أكثر عزمًا . ذلك أنه منذ سنة ١٨٥٧ زار الدكتور بيرز أحد أطباء البلاط القيصرى وكان متزوجاً من فتاة هي ابنة أحد جيرانه في أملاكه وكان يشاركها اللعب وهو صبي ، فوجد أن هذه السيدة لها ثلاث بنات في سن الزواج ، الكبرى منهن وهى ليذا جميلة الوجه متناسبة القسمات إلا أنها وقورة ثقيلة الحركات بعض الشيء ، أما الأخت

الثانية وهى « سونيا » فكانت خفيفة الروح ذكية تقبل على القراءة وتؤلف قصصاً صغيرة وإن كانت ثقل عن أختها جمالا ، والصغرى منهن وهى « تانيا » لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها فى ذلك الحين وكانت مرحة للغاية تملأ الدار ضحكاً وصياحاً . وتأثر تولستوى بالأخت الكبرى وأخذ يكثر من الاختلاف الى الأسرة ولم يكن عندئذ شاباً بل هو رجل قارب الأربعين . ولم يكن بالرجل الجميل الصورة ، وكان فى ذلك الحين أقبح منه فى أى وقت آخر من حياته ، فقد أطلق لحيته وهى كثة غير منتظمة إذا كان شعرها خفيفاً فى بعض المواضع ، وكان أنفه الأفطس يعلو لحيته ومن فوقه عينان صغيرتان رماديتان براقتان ، على أنه كان بما له من مركز مطمح أنظار الأمهات . وعلى ذلك ظلت الأم ترحب بزياراته وهو يكثر من الاختلاف اليهم ويبدى إعجابه بالفتاة على أنه لم يقدم دليلاً على نيته .

الواقع أن تولستوى كان يحب الفتاة ولكنه كان على عادته غير متأكد من نفسه ، والواقع أنه راغب فى الزواج ولكنه يخشى أن يغير الزواج من حياته . ومضت شهور وهو واقف عند هذا الحد يتنقل بين بطرسبرج حيث يكثر من زيارة الأسرة وبين ضيعته حيث يرأسها . وانتهزت الأسرة قدوم الصيف فقررت الذهاب إلى الريف وقررت الأم أيضاً أن تزور مع بناتها تولستوى

في ضيعته وتمت هذه الزيارة . وكان يكتب في مذكراته احساسه نحو ليزة وجبه لها ثم إذا به يعود فيسجل أنه يراها غير صالحة كزوجة ثم يعود فيسجل أنه يراها كريهة . وفي هذه الأثناء كان يتحول تحولا عجيباً نحو أختها سونيا ويرى أنها أجدر بأن تكون زوجة له . وشعرت سونيا بذلك وسرت في أعماق نفسها ولكنها لم تظهر شيئاً احتراماً لأختها . ولم يلبث أفراد الأسرة جميعاً إلا الفتاة ليزه أن لاحظوا هذا التحول وأخذت سونيا تجذبه إليها حتى فتحت أعين ليزا للحقيقة وقام صراع صامت بين الأختين .

طال الأمر حتى لم يعد أمام تولستوى غير أمرين إما أن يقدم على طلب الفتاة وأما أن ينقطع عن زيارة الأسرة . وفي ذات يوم قصد منزل الأسرة وطلب أن يقابل سونيا على انفراد وسلمها رسالة لتقرأها ثم ترد عليه . ومما هو جدير بالذكر أن لدينا جميع تفاصيل هذا الموقف . فتولستوى كما هو معروف استمر منذ صباه يكتب مذكرات يومية ، وسونيا كذلك كانت تسجل مذكراتها اليومية و « تانيا » أختها كانت تقيد أيضاً مذكراتها اليومية .

هجمت ليزا على أختها تقول : ماذا كتب لك ؟ فأجابتها أختها : عرض على الزواج ، فصاحت بها الأخت : أرفض في

الحال . وأجهشت بالبكاء وتدخلت الأم ودفعت ابنتها سونيا نحو السلم قائلة : اذهبي وخبريه بجوابك .
تقدم إليها تولستوى متلهفاً وسألها ماذا ترين ؟ فأجابت وافقة بالطبع . وبعد لحظة كان أهل الدار يتقدمون إليها بالتهنئة ما عدا ليزا والوالد الذى كان يحب ابنته الكبرى أكثر من أخواتها .

٦

الحرب والسلام

انتقل تولستوى على أثر زواجه إلى طور جديد من أطوار حياته سواء فى معيشته أم فى نشاطه الفكرى . فزوجته كانت مولعة به ولكنها كانت من النوع الذى لا يسمح بالمشاركة فى الحب ، فما إن صارت سيدة قصر اسنايا بوليانا حتى بدأت تنظم القصر وترتبه كما ترى ، لا تسمح لقريباته فى التدخل بل لا تسمح لزوجها فى أى تصرف داخل الدار . وامتد هذا النشاط إلى خارج الدار أيضاً فحملت زوجها على أن يترك المشاغل غير المجدية فى نظرها مثل المدرسة ومخالطة الفلاحين ، ودفعته إلى العناية بتدبير أمور ضيعته وتنظيمها بحيث تدر عليهما إيراداً وافراً ، وخضع الزوج الذى ذاق لذة الزوجية وهو الرجل السريع الخضوع لشهواته وتسلطت عليه الزوجة تسلطاً كبيراً . وفى السنة الأولى من

زواجه جاءه طفله الأول من ثلاثة عشر طفلاً جاءوه على مدى الحياة .
بعد سنة من زواجه عاد إليه حنينه للكتابة وكان عليه أن يتم
قصة القوزاق التي وعد بها أحد الناشرين وقبض ثمنها مقدماً
فأتمها، ونشرت في ذلك الحين ولاقت من الاقبال ما لاقت كتيبه
الأولى التي جعلته في الرعيل الأول من كتاب روسيا .

ولكنه أخذ يشعر بأن عليه رسالة أكبر من ذلك فأخذ يفكر
في موضوع رواية عن أولئك الثائرين الذين دبروا مؤامرة في
أول حكم القيصر نقولا الأول ، ولكن أكتشفت تلك المؤامرة
التي عرفت باسم مؤامرة الديسمبريين وعوقب المتآمرون ، وكانوا
من كبار المفكرين ، شر عقاب .

ولكنه لدى دراسته لهذا الموضوع اتجه فكره نحو السنوات
الأولى من القرن التاسع عشر في روسيا ، ووجد نفسه مسوقاً إلى
موضوع وطني عظيم ، هو ذلك الهجوم الهائل الذي قام به
نابليون على البلاد الروسية حين اقتحم أراضيها ووصل إلى
عاصمتها موسكو ثم ارتد خائباً مقهوراً وهو المنتصر الذي لم يعرف
الهزيمة من قبل ، وكان ذلك بدء النهاية وأفول نجمه ، كل
ذلك لا لأنه وجد جيشاً أقوى من جيشه وأكثر عدة بل لأنه وجد
شعباً أجمع على ألا يقهر .

ثم أراد أن يرسم صورة للهيئة الاجتماعية في حالة الحرب حين يأخذ

الناس في أحاديث قلقة مضطربة حول موقفهم من العدو وموقف العدو منهم، فالطبقة العليا تخوض في مثل هذه الأحاديث ولكنها لا تستغنى عن اجتماعاتها وملاهيها العادية من حفلات راقصة ومسارح وزيارات ونزهات والتمتع باللحظة السريعة . وهذه اللحظة تبدو لهم أكثر سرعة وأجدر بأن تقتنص ، اما عامة الشعب فهم يخوضون في هذه الأحاديث وهم منتظرون تلك اللحظة التي يسوقهم فيها الحكام للتضحية .

هذه موضوعات طريفة حقاً إن عالجها كاتب جدى ولكنها تبلغ منتهى العظمة عند ما يعالجها كاتب في أوج نبوغه وتلك كانت حال تولستوى . فإنه إذ يكتب هذه القصة يشعر بأنه مسوق بقوة خفية تدفعه إلى عمل عظيم خالد أمضى فيه سنوات خمس استغرقت كل مجهوداته . وقد نشر القسم الأول من هذه القصة العظيمة الطويلة في سنة ١٨٦٥ وسماها في ذلك الحين باسم « سنة ١٨٠٥ » ونشر القسم الأخير في نوفمبر سنة ١٨٦٩ واختار لها نهائياً اسم « الحرب والسلام » ولا تسلك القصة النسق الروائى المعروف من حيث بسط الموضوع ثم الوصول إلى النتيجة بل هى تسلك أسلوباً أقرب إلى الملاحم الشعرية التى أبدعها خيال الإقدمين أى كما فعل هوميروس فى الإلياذة و الأوديسة .

ليست الحرب والسلام قصة موضوع بذاته ينطوى على مجرى

حياة بعض الأسر الكبيرة بقدر ما هى تصوير لتيار حياة أمة فى فترة عصبية من الفترات وفى أزمة من الأزمات التى تنتاب الأمم فتقضى عليها بالحياة أو الموت . وليس الموت فى الأمم كموت الأفراد ، معناه العدم والفناء ، وإنما معناه وقف الحياة فيها سنوات أو قرون بحيث لا تقوم بدورها فى الحضارة بالرغم من كثرة أفرادها وحدهم فى العمل . وغزو نابليون لروسيا كان من تلك الأزمات الشديدة التى تصاب بها الأمم لذلك كان طبيعياً أن يشعر بخطورتها جميع أبناء روسيا على تباين طبقاتهم وعلى اختلاف ما يستفيدون من صد المغير ، فالطبقة العليا تدافع عن أموالها وأملاكها وسلطانها ، والطبقة الدنيا التى لم تكن قد تحررت بعد ، لا تدافع عن غرض أو نفع مادى ، وإنما عن الأرض التى نبتت ونشأت فيها .

تلك القصة التى صاغها مؤلفها فى عمل فنى عظيم ليس له مثيل من قبل وربما لم يأت له من بعد مثيل ، ليست على قول تولستوى نفسه رواية قصصية ولا هى قصيدة ولا هى سجل تاريخى بل أنه اتخذ الشكل الأنسب للموضوع ، وهو لم يرد إظهار مساوىء العصر لأنه لم يرق فى ذلك العصر من مساوىء أكثر مما كان فى عصره ، وهو لم يعلق أهمية على العظماء الذين اشتركوا فى تلك المأساة الدامية بل كان همه أن يظهر أن مجرى الحوادث كان أكبر من

تقديراتهم ، وأن يد الأقدار كانت تكيف الأمور وفق ما تريد لا وفق الخطط التي رسموها ، وقد وصف تولستوى ذلك باتقان بلغ أقصى ما يصل إليه البشر .

ومن ميزات تولستوى في تلك القصة العظيمة أنه اقتطع الأشخاص من صور حية تعيش بجانبه من أفراد أسرته وأقاربه ورجال طبقته الذين يخالطهم بل من نفسه . فصورة «بيير» مثلاً فيها الكثير من صورة تولستوى ، والفتاة ناتاشا الصغيرة المرححة هي على الأغلب صورة لثانيا أخت زوجته وإن ذكر تولستوى أنه في رسمها مزج بين الزوجة وأختها . ولقد تكون صورة نابليون مصورة بقلم ناقد يهيمه أن يسجل النقائص ويتغافل عن المزايا ولكن يجب ألا ننسى أن المؤلف أراد بذلك أن يقوى من ملحمة الوطنية .

كانت حياة تولستوى في السنوات الخمس التي كتب فيها روايته حياة سعيدة على الغالب ، فهو متفرغ لأبحاثه يقرأ كل ما يقع بين يديه من مذكرات ذلك العصر ورسائله وتدبر الكونتيسة أمور البيت في حزم . ثم يملأ عليها ما يدور بخاطره وتخلو إلى نفسها لتنتقل ما أملاه بخط حسن . ثم يعود فيغير ويبدل وهذا دأبه دائماً ، فقد كان يرسل أحياناً برقيات إلى الطابع ليغير كلمة أو عبارة ، فتعود الزوجة إلى نقل الكتابة مرة ثانية . ولا ريب

في أن عملها كان مساعدة جلييلة وهي لم تكن تكتفى بمجرد النقل بل كانت تحثه على الكتابة وإتمام عمله العظيم . ففي طبيعة تولستوى ما يدفعه إلى الهروب من العمل قبل إتمامه . ومع ذلك لم يكن تولستوى في أعماق نفسه راضياً كل الرضا بل كتب أكثر من مرة في مذكرته ما يدل على قلقه وتبرمه بالحياة التي يحياها . وكثيراً ما نجد في مذكرته الخاصة التي اعتاد أن يخط فيها خطرات نفسه ودخائلها ما يدل على بدء الشعور بأن الحياة الزوجية ثقيلة الوطأة على نفسه ، فهو يقول « إن الحياة معها في مكان واحد صعب على نفسى » ومع ذلك كان لا معدى له عن هذه الزوجة فهو إن لم يكن قريباً منها روحياً كان لا يستطيع الاستغناء عنها جسدياً وهو الرجل ذو الرغبة المتجددة .

٧

نزعات وتجارب

ظهرت للناس قصة الحرب والسلام فارتفعت شهرة كاتبها إلى أبعد ما تصل إليه شهرة كاتب في بلاده ، وجاوزت حدود بلاد روسيا إلى الأقطار الأخرى من البلاد الأوروبية وغير الأوروبية وشرب الكاتب كأس الثناء حتى الثمالة . على أنه انتهى منها وهو

برم بها يود لو انتقل إلى عمل آخر أو يعود لو استطاع أن يتركها دون إتمام ، ولولا زوجته ومثابرتها لعدل عن إتمامها .

لذلك لم يكن غريباً منه أن رأيناه ينتقل إلى عمل آخر فيعود إلى فكرة تثقيف أولاد الفلاحين وتعود مدرسته إلى الظهور . وفي هذه المرة لم تكن الكونتيسة لتقف في سبيله إذ أنها في تلك الأثناء قد جاءت به بخمسة أطفال نموا وبدأ تثقيفهم على يديها فكأنها والحالة هذه افتتحت مدرسة صغيرة ، ولم يكن يضيرها أن يلتفت زوجها إلى مسائل التعليم عله يشاركها في تعليم أولادها .

بدأ هذا الاتجاه لمسائل التعليم بأن فكر في وضع كتاب لمطالعة الأطفال فأخذ ، يطلب الكتب من فرنسا وإنجلترا وألمانيا من هذا النوع ليهتدى بها وصارت حقايب الكتب تأتي تباعاً إلى اسنايا بوليانا وتملاً كل مكان وهو - الكاتب الكبير - ينصرف إلى قراءة هذه الكتب ويدون ملاحظاته ، وقد ترك أمور الزراعة نهائياً لزوجته التي غيرت وبدلت في موظفي الزراعة لا سيما من كان منهم ذا زوجة جميلة .

ومن الغريب أن تولستوى كان يعنى في هذه الفترة بأمور عدة لكنه كان لا يعنى بكتابة قصة من قصصه الخالدة . وقد أقبل على المطالعة في نهم فقرأ الكثير من القصص الروسية القديمة ، وقرأ في هذه الفترة أو أعاد قراءة مؤلفات شكسبير وموليير وجيته وجوجول

ثم أخذ في تعلم اللغة اليونانية القديمة ، ولم تمض أسابيع حتى كان يقرأ بها مؤلفات الأقدمين وأظهر تقدماً غريباً عجب له أستاذه . وأقبل بين هذا وذاك على لقاء دروس على أولاده وفي مدرسة الفلاحين . ومن الغريب أنه كان برماً بالدروس التي يلقيها على أولاده لا يصبر إذا أظهروا قلة فهم ولا يغتفر خطأ لهم ، أما مع أولاد الفلاحين فكان صبوراً كثير العطف والحنان وكثير الاهتمام بما يحصله الأطفال .

على أنه كان من الطبيعي أن يستحثه أهله وجميع أصدقائه ويلحوا عليه في أن يعود إلى التأليف وألا يترك ثمار موهبته العظيمة . ولذلك أخذ في البحث عن موضوع يكتب فيه وصادف أن قرأ كتاباً في تاريخ بطرس الأكبر فأتجه إلى اتخاذ حياة هذا القيصر الروسي العظيم موضوعاً . إلا أنه آثر أن يضع قصة تمثيلية في هذا الموضوع وبدأ يجمع المذكرات الخاصة بذلك العصر ويقضي أوقات طويلة في تلاوتها ، ولكنه كلما ازداد علماً بتفصيلات تلك الفترة من تاريخ روسيا كان يجد نفسه بعيداً عن العطف على ذلك القيصر العظيم . فهو ينظر إلى حياة هذا القيصر وأعماله نظرة الناقد ، ويرى أن الإصلاحات التي قام بها حين عمد إلى إدخال النظم والتقاليد الغربية في روسيا لم تكن عملاً جليلاً بل كان فيها قضاء على فضائل الروس القديمة ، فهو في

صف خصوم ذلك القيصر من النبلاء الذين عارضوه لا في صف
ومؤيديه ومناصريه .

وعلى ذلك طرح هذا الموضوع بعد أن شغل به سنتين وعدل
عنه نهائياً .

وفي هذه السنوات شعر بعدة أمراض استشار فيها أطباء موسكو
فكان يشكو تعباً في عينيه وأرقاً ثم، عاوده الخوف من أن يكون
مصاباً بمرض في صدره، فكان يذهب في الصيف للاستشفاء
بجنوب القوقاز، وشرب لبن الأفراس المخمر الذي يسميه الروس
« الخميس » وظلوا يعتقدون أنه من أحسن الوسائل للشفاء
بل لقد اشترى في تلك الجهة ضيعة ليذهب إليها في الصيف
وكان يذهب مع بعض أفراد عائلته أو معهم جميعاً إذ أصرت
زوجه ألا تتركه وحده بعد ما كان منه في رحلة سابقة من
الاتصال بفتاة جميلة .

هكذا مرت السنوات التي تلت ظهور « الحرب والسلام »
في بحث عن موضوع لرواية جديدة وفي محاولة الفرار من الكتابة
أهمي طبيعة الفنان الذي أخرج كتاباً خالداً أن يقضى بعض
الوقت في الاستجمام من عمله ؟

في سنة ١٨٧٠ حدث لدى أحد أصحاب الضياع المجاورة

حادث أثار أهل أقليم «تولا» وكان موضوعاً لتعليقاتهم وأقوالهم .
 ذلك أن رجلاً كهلاً من أصحاب الضياع أتى بقرية فقيرة إلى
 داره بعد أن ماتت زوجته لترعى أمور الدار وكانت فتاة جميلة
 صغيرة السن ، فأحبها واتصل بها واتصلت به ولم يخرج هذا الأمر
 عن حد المألوف عند هؤلاء السادة . وكانت الفتاة الساذجة تعتقد
 أن الرجل سيظل وفياً لها في حبه ، غير أنه لم يلبث أن ملها فرأى
 أن يتخذ مربية جميلة لأولاده ، فأتى بفتاة فرنسية واتصل بها
 فتملكت من قريبته الغيرة وأخذت تعنفه على عمله . فطردها من
 منزله وظلت الفتاة هائمة في المزارع ثلاثة أيام . وفي اليوم
 الثالث أرسلت إليه رسالة تستعطفه فيها فرفض أن يتلقى الرسالة
 فاستولى عليها اليأس وألقت بنفسها أمام قطار كان ماراً بالمدينة .
 وانتشر خبر الحادثة في سرعة البرق ودفع الفضول بتولستوى إلى
 أن يذهب إلى المحطة . حيث كان يجري التحقيق وشهد جثة
 الفتاة .

أثرت فيه هذه الحادثة ، وبظهر أنه رأى فيها موضوعاً صالحاً
 لقصة غير أنه لم يأخذ في الكتابة بل ظل يفكر كيف يبتدئ
 موضوعه . وفي أحد الأيام كان جالساً يقرأ مجموعة قصص
 لبوشكين الشاعر الروسي فاذا به يقرأ قصة ابتدأها بقوله « بدأ
 المدعرون يفدون في صبيحة العيد » ، فتأثر بهذه البداية البسيطة

السهلة وقام لوقته إلى غرفة مكتبه وبدأ قصته الحديدية وظل يكتب ثلاث ساعات .

علمت زوجته في المساء بأنه ابتداء قصته الحديدية ففرحت لذلك فرحاً عظيماً ؛ فلقد كانت تقدر موهبته في القصص تقديراً كبيراً وترى أن مجهوداته في غير ذلك هباء وعبث وكثيراً ما سهرت الليالي في إعادة كتابة هذه النصص حتى تكون صالحة للنشر . ونستطيع أن نتبين هذا المجهود لو وقع نظرنا على أحد كتب تولستوى بخطه فنشعر بما كانت تلقاه من تعب في حل تلك الرموز .

كانت قصة الفتاة المنتحرة هي التي أوحى الى الكاتب مرضوعه ولكن قصة أنا كرنيينا بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد حادث عابر ، بل هي قصة أسرة بل ثلاث أسر ، وقصة مشكلة خطيرة هي مشكلة الزواج غير الموفق . فأنا كرنيينا الفتاة المترفة الممتلئة حياة التي تعيش في أرقى الأوساط التي عرفتها روسيا القيصرية وتختلط بأكبر أعضاء الهيئة الاجتماعية ، تزوج من رجل متقدم في السن كبير الجاه واسع الثراء ، وتقبل الزواج منه لأنها تود أن تعيش عيشة الترف التي تعودتها . أما الزوج فهو ينظر إلى زوجته نظر المتاع الذي يكمل به مظاهر جاهه وراثه ، ولا تلبث الفتاة أن تشعر بحقيقة موقفها من هذا الزوج ولكنها لا تستطيع الخلاص ، وهي

في الوقت نفسه أبية النفس لا تريد أن تخضع للظروف ، فتقدم على حب شاب من النبلاء وترى في هذا الحب عوضاً عما تعانيه في زواجها وترى فيه انتقاماً من موقف الزوج نحوها ، وتندفع في هذا الحب اندفاعاً شديداً حتى تصير مضغة للأفواه ، وتهدد بالقضاء على مستقبل عشيقها ، فيحاول العشيق أن يتخلص من هذا القيد فاذا هجرها لم تجد بدا من الانتحار بأن تلقى بنفسها أمام قطار سائر .

ليس هذا هو كل موضوع القصة فهناك قصة أسرة أخرى تمثل الزواج العادي إذ الزوجة مخلصة وفية ، والزوج رجل عابث لا يتورع عن الاتصال بنساء أخريات ، يعوضن ما فقدته الزوجة من جمال حين أكرت من الأطفال وشغلت بتدبير أمورهم ، وإلى جانب ذلك وصف المؤلف حباً طاهراً يشب بين فتاة جميلة وبريئة وبين شاب من نبلاء الريف لا يعرف مساوئ حياة المدن أو هو يعرفها ويحتقرها ثم ينتهي هذا الحب إلى الزواج السعيد المتكافئ .

تلك هي الخيوط المختلفة التي ينسج منها المؤلف قصته في مهارة عجيبة جعلت هذه القصة من أكبر المؤلفات الخالدة للكتاب الأوربيين . على أن تولستوى كعادته رسم صور الأشخاص من الحياة المحيطة به . فليس لقين في القصة إلا صورة بجانب

من تولستوى نفسه ولعله خير جوانبه ، وفي انا كرينينا وفي حبها للسيطرة وشدة غيرتها على عشيقها فرونسكى شبه قريب بزوجه سونيا ، وفرونسكى نفسه صورة أخرى للمؤلف في عصر من العصر ، فهى إذن قصة قائمة على حياته وحياة أهله في اسنايا بوليانا وان كانت حوادثها قد صيغت بيد فنان من أكبر الفنانين الذين عرفتهم أوروبا .

ومن عجيب الأمور أن كبار الكتاب المعاصرين له بل أكبرهما دستويفسكى وترجنيف لم يقدرا هذه القصة حق قدرها في مبدأ نشرها ، ولعل ما لقيته من إقبال وتهافت كان سبباً وعاملاً شخصياً لديهما جعلهما يغمطان من قدر الكاتب العظيم ، فقد ذكر دستويفسكى في رسالة إلى زوجته أنه علم أن تولستوى يتناول أجراً عن قصته هو ضعف ما يتناوله الكاتب في صعوبة وإلحاح ، ويقول في مرارة « ذلك لأنى أعيش من هذا العمل » وكان هذا القول حقاً .

وقد وصف لزوجه اجتماعاً حضره عند بعض الأصدقاء فقال « لم يقل أحد كلمة عن روايتي وكان من البين أنهم لا يريدون جرح عواطفى ولم يتحدثوا كثيراً عن رواية تولستوى ولكن ما قالوه يدل على حماسة عجيبة » وذكر أنه يرى انا كرينينا قصة مملّة . أما ترجنيف فقد ذكر في رسالة أنه يعرف مقدرة تولستوى

ولكنه اتخذ في « اناكرينا » اتجاهاً خاطئاً وأنها ليست عملاً
فنياً حقاً .

ومع ذلك لم يلبث دستويفسكى حين قرأ القصة كاملة ان
نسى شكوكه وكتب يقول « ليس لهذه القصة من مثيل ،
من من كتابنا يقارن بتولستوى ؟ وفي أوروبا من كتب
ما يقارن بها ؟ »

وقد أبدى تشيكوف رأيه حين كتب لصديق « أمام الفنان
أمران حل مشكلة وأظهار مشكلة في صورتها الصحيحة والأمر
الثاني هو وحده من واجبه : ففي اناكرينا وأوجين أونيجن
(لبوشكين) لا يحل المؤلف مشكلة واحدة ولكنه يرضينا ارضاء
كاملاً لأن جميع المشاكل موضوعة في أصح صورة » .

لا ريب في أن تولستوى كان يهتم لما يسمعه من ذم أو مدح
في قضيه لاسيما هذه القصة العظيمة . ولكنه كان لا ينفك
يشعر برغبة في العدول عن إتمامها ، فهو قادم على تحول كبير في
نفسه وفي آرائه .

اعترافات

أن يكون الرجل واسع الضياع كبير الثروة ، ذلك أكبر ما يرجوه الناس في حياتهم ، وأن تكون له زوجة محبة وأسرة في نمو دائم فينعم بالمال والبنين ذلك أقصى ما تقف عنده آمال الناس ، أما أن يؤلف تلك القصص الخالدة فيبلغ بها ذورة المجد في بلاده وتدر عليه إلى جانب ذلك أموالا لا حاجة به إليها ، فذلك ما يعمل له الناس في حياتهم فلا يصلون إليه وقد وصل إليه تولستوى . ونحن ننتظر من مثله أن يكون هادئا ناعم البال وقد بلغ في القصة الى أكبر ما بلغه الكتاب في ذلك العصر وكل ما بقى أمامه هو أن يتسابق مع نفسه ، ولو فعل لظل من أكبر كتاب القصة في أوربا إن لم يكن أكبرهم ، ولكن لم يكن ليشغل في الحياة ذلك المركز الغريب الذى وصل إليه .

فبينما كان تولستوى يحبر في سنوات تسع أوراق « الحرب والسلام » ثم « أناكر نينا » وقبل أن ينتهى من وضع هذين المؤلفين العظيمين كانت آراءه تتجه نحو وجهات أخرى من التفكير.

وآفاق جديدة ليس من شأن الروائي أن يغوص فيها وإن كان له أن يلم بها وقد ألم بها تولستوى في كتبه .

فقد أخذ يتجه في البحث نحو الدين والكنيسة الروحية وكانت نفسه القلقة قد حاولت أن تجد في الدين دعامة ترتكز عليها. فنجده في هذه الفترة من حياته يقوم بزيارات لعدد من الأديرة الشهيرة في روسيا، ويحاول أن يقابل رهباناً عرفوا بالتقى لكي يلقي عليهم أسئلة مما يدور في خلده من مسائل دينية، لاسيما ما يتعلق منها بالحياة والموت . وهما مسألتان حاول تولستوى أن يعرف سرهما كما حاول غيره من كتاب . وإن كان تولستوى قد تعمق في وصفهما تعمقاً كبيراً وبخاصة في كتاب الحرب والسلام وقصة موت إيفان إيلتش .

على أنه لم يجد لهاتين المسألتين من جواب وأنى له أن يجد ! إتجه في بحثه نحو الأناجيل ونحو العهد القديم وحاول أن يقرأ هذه الكتب المقدسة في لغاتها الأصلية . وكان قد تعلم اليونانية القديمة من قبل فأخذ يتعلم اللغة العبرية في جد في هذه السن لكي يستطيع قراءة العهد القديم في لغته الأصلية . وكان في أثناء قد أخذ يعمل عمله الروائي .

ولاحظت زوجته هذا التحول في نوع من الاضطراب لأنها كانت ترى أن شهرته روائياً هي أهم من كل شيء لاسيما بعد أن .

اعترفت جميع الأوساط بنبوغه وتفوقه وبعد أن درت عليه قصصه من المال فوق ما يريد . وقد حدث في ذلك الوقت أن أهدى إليه صديق كتاب المسيح للكاتب الفرنسي رينان فقرأه ولم يعجبه ، لأن ذلك الكاتب أراد أن يضع أساساً تاريخياً لتلك الحياة ولأن الكاتب الفرنسي أراد أن يقيم بحثه على أسس تتفق وما وصل إليه العلم الحديث ، وتلك طريقة لا تلائم تولستوى ذلك العهد الذي كان ذا نزعة صوفية على دقة بحثه .

هذه النزعة الدينية الصوفية انتهت به إلى أن أخذ سنة ١٨٧٩ في وضع كتاب سماه الإعترافات . وهو كتاب نحا فيه نحو جان جاك روسو إلا أنه في الواقع بعيد عن أن يكون في مثل صراحته وإن كان لا يقل عن الكاتب الفرنسي في فنه . وهو كتاب نجد فيه صفحات جميلة من بلاغة تولستوى وبيانه كما نجد الكثير من متناقضاته في تفكيره : « سأقص في يوم من الأيام تلك القصة المؤثرة المفيدة عن السنوات العشر من سنى الصبا ، وإنى لا اعتقد أن الكثيرين قد جربوا مثل هذه التجربة فلقد أردت من أعماق نفسي أن أقصد الخير ، وفي كل مرة حاولت فيها أن أعرب عن رغبة الخالصة في أن أكون صالحاً كنت أقابل بالاحتقار والسخرية ولكن بمجرد خضوعي لشهوات بهيمية كنت أمتدح وأشجع .

الطمع وحب السلطان والجشع وحب اللذة والكبرياء والغضب
والانتقام كل هذه كانت محترمة .

فاذا ما خضعت لهذه الشهوات صرت شبيهاً بمن هم أكبر مني
سناً وشعرت أنهم راضون عني

في تلك السنوات ابتدأت الكتابة لمجرد الخيلاء والطمع والكبرياء
وكنت في كتاباتي مثلي في الحياة . ولكي أحصل على الشهرة والمال
وهما ما كتبت من أجلهما كان من الضروري أن أخفي الخير وأنوه
بالشر وهذا ما فعلت . وكم من مرة حاولت في كتاباتي أن أخفي
تحت ثوب عدم الاهتمام أو السخرية تلك الميول عندي نحو
الخير ، وهي التي تجعل معنى للحياة ، وقد نجحت في ذلك وكان
جزائي الشناء .

وفي السادسة والعشرين من عمري عدت إلى بطرسبرج بعد
الحرب وقابلت الكتاب فقابلوني كواحد منهم وغمروني بالثناء.
وقبل أن يكون لدى الوقت لأنظر فيما حولى قبلت نظرهم إلى
الحياة . وهذه النظرات قضت على كل محاولاتي التي قمت بها لكي
أحسن من نفسي وهذه النظرات كانت تسوّغ عيشة الاستهتار
التي أحيّاها

ومن عجيب القول أنني فهمت ما في هذه الحياة من خديعة
وأقلعت عنها ولكنني لم أنزل عن المرتبة التي وضعني فيها هؤلاء

الناس وهي مرتبة الفنان والشاعر والعالم . ولقد خيل لي في بساطة أنى
شاعر وفنان وأستطيع أن أعلم الجميع دون أن أعرف ماذا أعلم
وسرت في هذا السبيل .

ومن اختلاطى بهؤلاء الرجال اكتسبت رذيلة أخرى هي
الكبرياء الشديدة والاعتقاد الغريب في أن مهنتي تعليم الناس
دون أن أعرف ماذا أعلم

هكذا عشت سنوات ست في هذا الجنون حتى تزوجت وفي
هذه الأثناء سافرت إلى الخارج ، فاقنعتني الحياة في أوروبا
واتصالى بالزعماء والعلماء من الأوربيين أن أومن بما كنت أعتقده
من محاولة الوصول إلى الكمال إذ وجدت تلك العقيدة بينهم .
وقد اتخذت هذه العقيدة الشكل الذى تتخذه لدى العدد الأكبر
من المتعلمين في هذا الزمن وهي التى يعبر عنها بكلمة التقدم .
وكان يبدو لي عندئذ أن لهذه الكلمة معنى . ولم أكن قد فهمت
بعد أننى وقد شغلت ، ككل إنسان ذى شعور ، بالبحث عن
خير وسيلة للحياة كنت أقول لنفسى : يجب أن أعيش وفقاً
للتقدم . وكنت كرجل في قارب حملته الرياح والأمواج وسئل
السؤال الأول والوحيد إلى أين يسير فأجاب اننا نحمل إلى
مكان ما .

لم ألاحظ عندئذ ذلك بل كنت أحياناً أثور ، بالغريزة

لا بالعقل ، على هذه الخرافة المنتشرة في أيامنا والتي يخفى الناس وراءها عدم مقدارهم على الفهم . فعلى سبيل المثال عند ما كنت في باريس شهدت تنفيذ حكم الاعدام فثبت لدى عدم استقرار عقيدتي الخرافية في التقدم ؛ إذ عند ما رأيت انفصال الرأس عن الجسد وسمعت صوت سقوط كل منهما في الصندوق فهمت لا بعقلي بل بكل تكويني ، أنه لا يمكن نظرية تفكيرنا في تقدمنا الحاضر أن تسوغ هذا العمل . . . ٢

ثم مضت خمس عشرة سنة من حياتي وبالرغم من أنني صرت أعتبر التأليف أمراً قليل الأهمية ظلمت مدة هذه السنوات أضع الكتب . فلقد ذقت حلاوة التأليف وما فيه من مكافآت كبيرة مالية وما فيه من إعجاب كبير بعمل صغير . ووقفت وفتي عليه كوسيلة لتحسين مركزى المادى والقضاء في نفسى على كل تساءل عن معنى حياتى أو معنى الحياة بصفة عامة . وكتبت أعلم الناس ما كان يظهر لى أنه الحقيقة الوحيدة وهو أن يعيش الإنسان بحيث يضمن لنفسه ولأسرته خير ما يصل إليه من وسائل العيش .

هكذا عشت ، ولكن منذ خمس سنوات بدأ يحدث لى أمر عجيب : شعرت فى مبدأ الأمر بلحظات من القلق ووقف الحياة كأنى كنت لا أعلم كيف أعيش ولا ماذا أعمل ، وكأنى تائه فى

تدبير أمرى فأشعر بانقباض غير أنه كان يزول . وأعود إلى حياتى كما كنت من قبل . ولكن هذه اللحظات من الحيرة أخذت تزايد على هذا النحو دائماً ويمكن التعبير عنها بهذين السؤالين لماذا هذه الحياة وإلى أين تؤدى بي ؟

لقد ذهبت الخدعة التى كنت أجدها فى لذات الحياة ومهما قيل لى إنك لا تستطيع أن تفهم معنى الحياة فاترك التفكير فيها واستمر فى معيشتك كنت لا أستطيع ذلك . فلقد عشت طويلاً ولم أعد أستطيع إلا أن أرى النهار والليل يختلفان وهما يقتربان بي إلى الموت ، ذلك كل ما أراه وذلك هو الحقيقة الوحيدة وكل ما عداه كذب . أن نقطتى العسل اللتين كانتا تشغلان نظرى عن الحقيقة القاسية وهما حب الأسرة وحب الكتابة أو الفن كما أسميه لم تعدلها حلاوة لدى

ولكننى قلت لنفسى مرات عدة ربما إنى غفلت عن شىء أو لم أفهم شيئاً . فليس من المستطاع أن يكون هذا اليأس طبيعياً لدى الإنسان . وحاولت أن أجده جواباً لمشاكل فى جميع فروع المعرفة التى كسبها الناس . وبحث طويلاً بحثاً متعباً لا لمجرد الفضول ولم أبحث فى فتور بل بحثت فى استمرار بحثاً ممضاً ليلاً ونهاراً - وبحث كما يبحث الغريق عن النجاة - فلم أجده . وعلى هذا النحو يصف وصفاً ممتعاً كيف التجأ إلى العلوم يبحث

فيها ليجد جواباً لهذا السؤال الذي كاد يؤدي به إلى الانتحار ، فبحث في العلوم النظرية ثم بحث في العلوم التجريبية فلم يجد جواباً لسؤاله ، فكان كرجل ضال في غابة يتسلق إحدى الأشجار فيشرف منها على الأشجار الممتدة ولكنه يرى أن مقامه ليس هناك ، ثم ينزل إلى ظلام الغابة فتقصر دائرة رؤيته ويرى كذلك أن مقامه ليس هناك ، ثم يأخذ في دراسة الفلاسفة ويبحث عن رأى سقراط وشوبنهاور وسليمان وبوذا فإذا يقول سقراط « أننا نقرب من الحقيقة كلما أخذنا في مفارقة هذه الحياة ؟ إذن ماذا نجرى وراءه في هذه الحياة نحن الذين نريد الحقيقة ؟ هو أن نتخلص من الجسد . فإذا كان ذلك هو الأمر فلماذا لا نكون راضين إذا ما جاءنا الموت ؟

العاقل يبحث عن الموت طول حياته وكذلك ليس الموت فظيماً لديه .

أما تولستوى الذي يرى أن الطبيعة الداخلية للعالم هي الإرادة ، وأن كل مظاهر الطبيعة إن هي إلا مظهر لهذه الإرادة ، فيرى أن الرغبة في الحياة إن هي إلا إرادة هذه الحياة ، لذلك كان القضاء على هذه الإرادة معناه العدم ، وأن الفقراء من بني الإنسان الذين أقلعوا عن الرغبة في الحياة يكون هذا العالم لديهم بشموسه ونجومه كأنه العدم .

« وأما سليمان الحكيم فيرى أن كل ما في الحياة خداع وغرور،
 فآية فائدة للإنسان من كل ما يعملته تحت هذه الشمس ؟ يذهب
 جيل ويأتى جيل والأرض قائمة إلى الأبد . وما كان ، هو ما سوف
 يكون ، وما عمل هو ما سوف يعمل ، وليس تحت الشمس من
 جديد »

الأحياء يعلمون أنهم سيموتون والأموات لا يعرفون شيئاً وليس
 لهم من جزاء لأن ذكراهم سوف تنسى وقد ذهب حبهم وكراهيتهم
 وحسد هم ، ولم يبق لهم نصيب فى أى شىء فيما تحت الشمس .
 تروى الحكمة الهندية أن سكيامونى وهو أمير شاب سعيد لم يكن
 يعرف المرض ولا الكهولة ولا الموت . وخرج ذات يوم فاذا به يرى
 شيخاً فقد أسنانه وتعثر فى مشيته . فسأل سائق عربته من هذا
 وكيف وصل إلى هذه الحال ؟ فلما علم أن ذلك مصير جميع الناس
 أمر بالعودة إلى قصره ليفكر فى هذا الأمر . ومكث أياماً لا يرى أحداً
 ثم لعله وصل إلى حل يطمئن إليه فعادت إليه سعادته . وخرج
 مرة أخرى للنزهة فرأى مريضاً فلما سأل ما خطبه علم أن ذلك
 قد يكون مصير الناس فعاد توباً لقصره واحتجز نفسه أياماً ثم
 رجعت إليه بشاشته وعاد للخروج مرة ثالثة فرأى رجلاً يحملون
 شيئاً فسأل ما هذا قيل رجل ميت فسأل ما معنى ميت فقيل له
 أن يصير الإنسان مثل هذا الرجل ، فاقرب الأمير من الجثة وكشف

عنها ونظر إليها وسأل ماذا يحدث لهذا الإنسان قيل سيدفن في الأرض ، فسأل لماذا؟ قيل لأنه من المؤكد ألا يعود للحياة وستأكل جثته الديدان فسأل الأمير هل هذا مصير كل الناس وهل يحدث هذا لي وتدفن جثتي وأكون غذاء للديدان؟ فلما أجيب بالإيجاب قال عودوا إلى القصر فلن أخرج إلى الزهرة بعد اليوم وتقرر لدى سكياموني أن الحياة هي أكبر الشرور وعمل على أن يتحرر من قيودها ويحرر غيره، حتى لا تجدد الحياة بعد اليوم بل تدمر إذن هذا هو الجواب ولا فائدة من الخداع ، أن كل شيء باطل وسعيد من لم يولد والموت خير من الحياة. ويجب أن نتخلص منها .

أخذ تولستوى ينظر حوله ليرى كيف يطمئن الناس إلى الحياة ويخدعون أنفسهم ، فاذا هم أحد أربعة : جاهل لا يرى في الحياة شرأبل يعتقد أن فيها كل الخير وأكثر هؤلاء نساء وشبان طائشون. ورجل لا يبتغي من الحياة إلا التمتع بألوانها وهو عالم بمصيره فيها وهؤلاء هم السواد الأعظم من أبناء طبقة تولستوى . وفريق ثالث يتبع طريق القوة والعمل المجدى إذا ما تبين له أن الحياة شر فيتخلص بحبل حول الرقبة أو بغير ذلك من وسائل الخلاص ويقضى على نفسه ولكن عدد هذا الفريق قليل جداً. ولقد حاول تولستوى نفسه أن يتبع هذا الفريق ولكنه عدل للسبب

الرابع الذى ذكره وهو شأن الضعف ، فهذا الفريق يرى سخرية الحياة وحقيقة موقفه منها ولكنه يتشبث بها وكأنه ينتظر أمراً . وذلك ما حدا . إلى أن يفكر ، ويفكر لقد أدى به العقل إلى أن الحياة أكلوبة وزعم باطل كما أدى بكثيرين من قبل إلى هذه النتيجة . على أن العقل هو ثمرة الحياة وإن كان العقل يرفض الحياة نفسها فلماذا إذن يعيش ملايين من الناس هل هم يعيشون بالعقل ؟ الواقع ألا ، بل هم يعيشون بالإيمان وهو يقول « كيفما قلبت هذا السؤال كان الجواب واحداً : كيف أعيش ؟ أعيش وفقاً لقوانين الشريعة الربانية . وما هى النتيجة الحقيقية لهذه الحياة ؟ إما العذاب الأبدى وإما السعادة الأبدية فما المعنى الذى لا يقدر الموت أن يقضى عليه من الحياة ؟ الاتصال بالرب الأبدى . إذن فإلى جانب الاستنتاج العقلى توجد معرفة لا تخضع للعقل وهى الإيمان ، وهذا الإيمان لا يوجد عند الجماعة الذين يقبلون أنفسهم بالمتقنين ولكنه يوجد عند العامة من الناس . »

وهكذا بدأ تولستوى يتصل بالفقراء والبسطاء وعامة الناس ويحد فيهم الرجال الذين يملأ قلوبهم الإيمان حقاً والاطمئنان إلى مصيرهم فى هذه الحياة أو فى الحياة الأخرى . وإذا كان المثقفون يديمون الشكوى من الأمراض وكل ما يعترض حياتهم من الأحزان والآلام فهؤلاء المساكين يقبلون المرض والألم دون

تلملم أو اعتراض. وهكذا عرف كيف يجب هؤلاء الناس ويحلهم ويتبين له أن لا فائدة في البحث عما هي الحياة، بل يجب أن يطمئن إليها راضياً ويقبلها مطمئناً.

٩

نزعة إلى الدين

من البين أن تولستوى حين شعر بهذه الأزمة التي انتابته ووصفها وصفاً رائعاً في اعترافاته عزم على الإقلاع عن كتابة قصصه العظيمة التي رأى فيها هراء لا طائل من ورائه ولا نفع، وقد اتجه بأفكاره نحو الدين وأقبل على الكنيسة وأخذ يزاول طقوسها لا تفوته صلاة، وأخذ يقصد زيارة أضرحة الأولياء المشهورين كما أقبل على تلاوة الكتب الدينية، على أنه بقي بادي القلق مهموماً واتجه في الدين اتجاهاً غريباً. واضطربت زوجته لما رآته من تغيير حالته وكانت تصفه في تلك الأيام بأن نظرتة صارت غريبة وثابتة، وكانت تعجب لأمره وتسأله: لقد كنت فيما مضى قلقاً لأنك كنت بعيداً عن الإيمان فلماذا وأنت الآن مؤمن أراك غير سعيد؟ وكانت الكونتيسة غير راضية لعدوله عن كتابة تلك القصص العظيمة التي رفعته إلى قمة الشهرة في

ببلاده وجعلته من أكبر كتاب العالم ، وكانت ترجو وهو لا يزال
 في عنفوان قوته العقلية أن يستمر في تأليف القصص فيزيد مجداً
 على مجد ، ولكنه اتجه إلى مباحث دينية عجيبة لا يمكن أن
 تكون لها الأهمية إلا لدى المختصين . وقد كتبت إلى أختها
 تصف انكبابه على القراءة وبخه وتنقيبه عن الكتب التي تعنى
 بهذه المباحث والجهد الذي يبذله « وكل ذلك ليثبت أن الكنيسة
 لا توافق الرسالة المسيحية ، مع أنه لا يكاد يوجد في روسيا عشرة
 أشخاص يهتمون بهذه المباحث . ولكني لا أستطيع أن أعمل شيئاً
 وكل ما أرجوه أن ينتهي من هذا الطور في أقرب وقت وإن
 تزول هذه الحالة كما تزول الأمراض » . هكذا تكتب هذه السيدة
 مع أنها كانت تقية محافظة على شعائر الدين ، وهكذا وضع تولستوى
 مبحثيه الكبيرين في نقد الفلسفة الدينية الرسمية والمقارنة بين
 الأناجيل الأربعة وتراجمها .

في ذات مساء من شهر مارس سنة ١٨٨١ كان تولستوى واقفاً
 في الطريق العام كعادته يتحدث إلى المارة القلائل الذين يطرقون
 هذا الطريق . وإذا سائل قادم من مدينة تولاينبته نبأ جديداً هو أن
 القيصر اسكندر الثاني قد قتل وكان هذا الخبر صحيحاً فان القيصر
 خرج في عربة مكشوفة ليشهد عرضاً للحرس ، فاذا شخص

يتقدم ويلقى لفافة ورق تحت أقدام الجياد فيدوى صوت انفجار هائل وتصاب الجياد وبعض رجال الحرس . ونزل القيصر من العربة دون أن يصاب بشيء وعرض عليه بعض تباعه أن يركب عربة أخرى للحال ويتابع سيره ولكنه أبى إلا أن يرى الجاني الذي قبض عليه في تلك اللحظة . وحينئذ ألقى شريك الجاني بقنبلة ثانية فتكت بالقيصر وحمل إلى قصره في حالة سيئة حيث مات في تلك الليلة .

كانت روسيا قبل قتل القيصر في اضطراب سياسي ناشئ من نزاع دوى الآراء الحرة والمحافظين وكان تولستوى منهمكاً في اضطرابه الديني فلم يكن يعنى بالأمور السياسية ، ولكن هذا الحادث أيقظه من سباته وأخذ يفكر في مصير الجناة وما ينتظرهم من عقاب ، فاذا به بمسك القلم ويكتب في الحال رسالة إلى القيصر الحديد يرجوه فيها أن يعفو عن قاتلي أبيه ، وفيها يخاطب القيصر الحديد بصراحة عجيبة قائلاً : إني أوجه إليك رجاء رجل لرجل ، ثم يشير عليه لا يصغى إلى وزارته ورجال حكومته وأن يقلع عن فكرة الانتقام وأن يتبع شريعة العفو التي قال بها المسيح ويقول . « أنك يا مولاي لو فعلت ذلك ولو دعوت هؤلاء الرجال وزودتهم بالمال وأرسلتهم إلى بلاد بعيدة مثل أمريكا ثم تصدر إعلاناً بذلك مبتدئاً بالعبارة : إني لأدعوكم إلى محبة

أعدائكم ، فأنى لا أعلم تأثير ذلك لدى الآخرين ولكنى أنا ،
على قلة شأنى ، سأصير بمثابة الكلب لديك وأصير عبدك ...
أن كلمة العفو وإعلان المحبة المسيحية من أعلى العرش مما يفتح
طريق الحكم المسيحى أمامك انتظاراً لمرورك وهذا العمل
منك يقضى على جميع المساوىء التى تتألم منها روسيا ، ويندوب
النضال الثورى كما يندوب الشمع فى النار أمام القيصر والرجل الذى
يعلى شريعة المسيح . »

أرسل تولستوى هذه الرسالة العجيبة إلى رئيس المجمع المقدس
ليرفعها إلى القيصر، وكان رجلاً مثقفاً يحل الأدباء لا سيما
دستويفسكى ولكنه كان أيضاً رجلاً محافظاً يحترم القانون، ومن
الطبعى أن يحتجز الرسالة إلى أن أعدم المتآمرون ثم أعادها إلى
تولستوى ، وكتب إليه قائلاً إنى لم أحجزها اساءة فى حقك ولا
عدم اكتراث بها، ولكنى رايت أن عقيدتك فى جهة وعقيدتى
وعقيدة الكنيسة فى جهة أخرى .

ويقال إن القيصر علم بالرسالة عن طريق آخر فأبلغ تولستوى
أنه كان يغتفر هذا الاعتداء لو وقع عليه ولكنه وقع على أبيه فلا
يستطيع أن يعفو مهما يكن الأمر، فالواقع أن هذه الرسالة لا يمكن
أن تنتج نتيجة فى مثل تلك الظروف ، وهى أن دلت على شئ
فعلى انصراف ذهن كاتبها فى ذلك الحين إلى نزعته

ومباحثه الدينية دون تقدير لحجى الحياة ، والشئ الوحيد الذى يستخلص منها هو أن تولستوى كان إذا خطرت له فكرة أبدى شجاعة عجيبة فى التمسك بها والإعلان عنها دون أن يتقيد بملائمة الظروف ، وكان من الطبيعى أن الحرب الخفية القائمة فى روسيا بين النظام الرجعى والحركة الثورية العاملة على تحرير الأمة تقضى بالألا ينتظر هؤلاء الثوار عفوا ، كما أنهم أقدموا على اقراراف كل جريمة فى سبيل تنفيذ أغراضهم .

تولى القيصر اسكندر الثالث عرش روسيا على أثر جريمة ، فكان من المنتظر أن يشتد ساعد الرجعية فى البلاد وأن ينكب بعد الجريمة أرباب الآراء الحرة . وكان نفوذ رجال الكنيسة الأرثوذكسية فى البلاد كبيراً ، واشتدت رقابة الشرطة على الناس وزاد عدد الجواسيس زيادة كبيرة وصارت الأحكام بالنفى والاعدام تصدر لأقل هفوة . وكان الرجعيون يرون أن أكبر الشر آت من أرباب القلم والمفكرين ؛ ولذلك اشتدت الوطأة عليهم وفى مقدمتهم ذلك النبيل الذى لا يسلك مسلك النبلاء فى تأييد الرجعية بل يعبر عن آراء خطرة يمجدها فيها عامة الناس ويشيد بفضائلهم كما يعيب أبناء طبقته ويعدد مساوئهم ؛ لذلك منع الرقيب الدينى نشر اعترافات تولستوى عندما أراد نشرها على أنها كانت تنقل وتوزع وهى مخطوطة ، وفى كتابه الثانى المسمى

« عقيدتي » لم يستطع تولستوى أن يحصل على ترخيص
بنشره ونشر طبعة خاصة لأصدقائه، ومع ذلك صادرت السلطات
هذه الطبعة ، ولكنها لم تقض باتلافها بل أرسلتها إلى بطرسبرج
حيث تخاطفها الكبراء من الموظفين وصاروا يقرأونها ويتناقشون
بشأنها فيما بينهم .

قد يقال إن تولستوى لم يكتب رسالته إلى القيصر انتظاراً
لنتيجة عاجلة أو آجلة وإنما أراد بها مجرد الشهرة والظهور ، وذلك
تفسير قد يتفق مع رأى الكتاب الذين رسموا له صورة فيها الكثير
من السخرية ، ولكن الواقع أن تولستوى كان جاداً في عمله
وكان إذا استولت عليه فكرة أظهرها ونادى بها دون أى اعتبار
آخر أو تقدير للظروف المحيطة به ، وكان هذا شأنه لا في أرائه
وحدها بل في تصرفاته. لذلك نراه بعد شهرين من هذا الحادث
يفكر في الحج إلى دير أوبتينا بولين ، فيقوم مع تابع ومع مدير
مدرسة قريبة وقد اتخذ ملابس الفلاحين فارتدى قفطاناً طويلاً ،
واحتذى نعلاً في قدميه العاريتين ، وسافر الجماعة إلى هذا الحج
سيراً على الأقدام . وما انقضى يوم على سيرهم حتى كانت أقدام
السيد قد تسلخت ودولم يألف لبس النعال في قدم عارية
واضطر في أول مدينة وصلوا إليها أن يشتري جورباً كما اشترى حزاماً
من الصوف لوقاية جسمه . وكان تابعه يحمل حقيبة صغيرة فيها

بعض الملابس النظيفة. وظلوا في رحلتهم الشاقة أربعة أيام ووصلوا في مساء اليوم الرابع إلى الدير. ولم يفطن رجال الدير لهم فأنزلوهم مع السائدين وأبناء السبيل وسر. تولستوى لذلك غاية السرور ولكن لسوء حظه كان نومه مع صانع أحذية في غرفة واحدة، وكان الرجل كثير الشخير فلم يستطع الكونت أن ينام وأشار إلى تابعه بأن ينبه الرجل. ولما علم الرجل السر في إيقاظه غضب وصاح: أتريد ألا أغمض عيني من أجل صاحبك الشيخ؟

وفي اليوم التالي سرت اشاعة بأن الكونت تولستوى بين زوار الدير فبحث عنه الرهبان واكتشفوا أمره، وعلى أثر ذلك دعى إلى العشاء مع رئيس الدير، واضطر إلى أن يرتدى ملابس نظيفة، وبعد العشاء قيد إلى غرفة نوم عطاء الضيوف، وكانت حوائطها مغطاة بالخجل وفيها قضى ليلته وعاد في يومه التالي بالقطار.

ظل تولستوى ردهاً من الزمن ينتقد الكنيسة ويريد أن يرجع بها إلى بساطة الدين في عصره الأول، وأن تتخذ الكنيسة تلك الآيات البينات في الإنجيل على حرفيتها دون تأويل أو تفسير ودون ملازمة بينها وبين الحياة الحاضرة وتشعبها، أو بعبارة أخرى يريد أن تنزل الكنيسة عن مركزها وسلطانها وسيطرتها في الدولة منذ قرون. وكانت حملته شديدة على الطقوس الدينية ولكنه ظل

مع ذلك محافظاً على صلواته وصيامه، على أنه لم يلبث أن اعتقد بأنه لم يعد يستطيع أن يقتنع بالصلاة والصيام وهذه الطقوس، ففي ذات يوم كان في صيامه فاذا هو يمد يده إلى طبق اللحم الموضوع أمام أولاده الصغار، وكانت تلك الحركة بمثابة إعلان للحرب بينه وبين الكنيسة الروسية.

١٠

الظلم الإجتماعي

سار تولستوى في الطريق الذي دفعه إليه تفكيره فوصل إلى نتيجة عجيبة هي أن حياة الفلاح الجاهل خير حياة وأبعدها عن الشرور، وأن الشر في حياتنا الاجتماعية إنما هو ناشئ عن ذلك الشك الملازم للمعرفة والبحث مما تعارف الناس على تسميته بالثقافة. وهذه الثقافة هي التي يستطيع أن يحصل عليها طبقة من الناس أوتوا الغنى وسعة الرزق إما عن ميراث قديم وإما عن مجهود بذلوه في اقتناص الثروة من أيدي المنتجين الحقيقيين وأمكنهم بالمال أن يسيطروا على هؤلاء المنتجين الذين هم أجدر منهم بالرزق. وصل إلى هذه النتيجة في تفكيره ولكن ماذا عمل بنفسه بعد أن عرف هذه الحقيقة؟

إنه يعتقد أن المال الذي يتمتع به مال مغتصب وأنه لم يبذل مجهوداً في سبيله بل ورثه عن الآباء ولا ريب في أن الأب الأول الذي اقتنى هذه الضياع قد استولى عليها عنوة بمجرد القوة وحررها أناساً أضعف منه ، وأن الآباء الذين جاءوا بعده استعملوا الناس وسخروهم في زيادة هذه الثروة ، والآن وقد اكتشفت هذه الحقيقة ماذا فعل لإصلاح هذه الحال ؟ تلك هي المسألة التي وقف عندها تولستوى لا يدري ماذا يفعل .

الدم الذي يجري في عروقه ، دم كبراء الأشراف الذين عرفوا عصر إيفان الفظيع ، ثم عاشروا أسرة رومانوف منذ تولت عرش القيصرية ، يتأديه بأنه سيد عريق المحثد يجب أن يبقى سيداً ، ويحتفظ بكل مظاهر الجاه اللائقة بنبييل مثله ، وإذا كان العقل يعلى غير ذلك ، فهل يغير العقل في لحظة ما بنائه الجسد أجيالاً ؟ كل ما استطاع أن يفعله حتى الآن هو أن يختلط بحياة فلاحيه اختلاطاً يقابله هؤلاء في الظاهر بالغبطة ، ولكنهم يقابلونه في الباطن بالحذر . ألم يرثوا هم أيضاً منذ قرون وراثته غريزية أن السيد لا يتودد إليهم إلا لغرض هو الرابع فيه وهم الخاسرون ؟ أن هذا السيد ظل يقحم نفسه في حياتهم ولكنه لا يزال يسير سيرة النبلاء في حياته ، وكل ما عمله من عمل إيجابي حتى تلك اللحظة ، أنه أهمل واجباته كرئيس لأسرته وسيد على

ضياعه، ومع ذلك نراه يحاول دائماً أن يقنع نفسه أنه قائم بواجبه
الإنساني الجديد. ففي تلك السنة التي انتابته فيها هذه الأزمة
النفسية يسافر إلى تولا ، عاصمة المقاطعة التي تقع فيها أملاكه
ليشهد منظرًا تعيساً هو منظر المنفيين ، ينقلون من سجنها إلى
سيبيريا ، وبذلك يزداد اطمئناناً إلى سوء النظام القائم . ولكن
ألم يكن يمازج هذا البحث حب الاستطلاع والفضول الذي
يجده السادة الذين لا عمل لهم ؟

ومع ذلك لماذا نذهب بعيداً : ألم يأتيه في ليلة فلاح مريض
محمول إلى قصره فلا يبلغ السيد الخبر حتى ينتهي من الطعام ؟
نعم غضب السيد لذلك ، ولكن ما فائدة غضبه إذا كان لا
يستطيع أن يعمل شيئاً ؟ إنه في حيرة من أمره لا يدري ماذا
يعمل لخير هؤلاء الفلاحين ، ولكن في تلك اللحظة تنبئه زوجته
في حزم أن واجبه الأول هو التفكير في خير أولاده ؛ فقد بلغ كبار
أطفاله سنًا ينبغي لهم فيها أن يدخلوا المدارس الكبيرة ،
ولذلك يجب على الأسرة أن تنتقل إلى موسكو وتقلع عن معيشتها
في الضيعة إلا في شهور الصيف . ومن الطبيعي أن يخضع
الفيلسوف لهذا الأمر . على أنه قبل هذا الانتقال يشعر بتعب
في صحته ، ولعل جزءاً من هذا الشعور بالمرض ناشئ من تفكيره في
المتاعب المادية للانتقال ، ولذلك يقرر في صيف ذلك العام أن

يذهب إلى الضيعة التي اشتراها في أقاليم الجنوب ليتداوى ببلن الأفراس ومعه بعض أولاده . وفي أثناء إقامته يبحث عادات تلك القبائل التي تعيش في جنوب الفولجا ويتصل بفريق ديني يعرف باسم الملكانيين ، لهم في بعض طقوس المسيحية رأى خاص . ثم يعود بعد ذلك من مصيفه إلى ضيعته ثم إلى موسكو حيث اتخذت الأسرة منزلاً واسعاً انتقلت إليه مصحوبة بالخدم والحشم وخصصت للفيلسوف غرفة كبيرة ، ولكنه لا يجد فيها ذلك الهدوء الذي كان يجده في قصره الريفي . وقد أخذت الكونتيسة ترتب حياة المنزل حسب مشيئتها وما يتطلبه مركز الأسرة ، فهي تحدد يوماً لزياراتها تستقبل فيه الزائرين من أهل طبقها ، ويخضع الفيلسوف إلى حد أن يمضي أوقاتاً في استقبال الزائرين ، وخضع الفيلسوف إلى حد أن ارتدى ذات مرة ملابس السهرة ، وذهب إلى حفلة اجتماعية كانت ابنته ستظهر فيها لأول مرة ، إذ بلغت السن التي يسمح فيها لأمثالها من الفتيات بارتداء هذه الحفلات . وخضع الفيلسوف لمواجهة كرب للأسرة ، فذهب إلى المدارس يتفق معها على قبول أولاده . ولكنه كان مع ذلك ثائراً في أعماق نفسه على هذه الحياة ، فهو من بعد ظهر اليوم يرتدى ملابس بسيطة ويتسلل من المنزل حيث يسير طويلاً في التلال

والغابات المحيطة بالمدينة ، كى يستطيع مخالطة العمال والعامّة
والتحدث إليهم .

حالته مناظر البؤس والشقاء فى المدينة الكبيرة أضعاف ما هاله
فى بلاد الريف ، فالبؤس مهما يكن شديد الوطأة فى القرى ،
فان مظاهره دائماً مخفية فى القرية تحت ثوب الاستسلام والرضا
بما حكمت به الأقدار ؛ وهو دائماً يختفى فى الأكواخ لا يبين إلا
للعين الفاحصة المتطلعة . اما البؤس فى المدينة فهو سافر ، تراه
فى تلك المحافل من العمال تسير فى غير هدى تسعى لغير عمل ،
أوتكد لعمل ضئيل ، وفى وجوهها علائم الفقر مرسومة ، وأكثر
منها علائم القلق إذ هى لا تأمن شر الغد . وترى البؤس فى المئات
من الرجال والنساء ذوى الأسنن البالية يمدون أيديهم للمارة
يستجدونهم بضع دريهمات ، وتراه فى أولئك الأطفال أجسادهم
تكاد تكون عارية وهم لا يعرفون لهم مأوى . ويعيشون على ما
يرميه الناس من مأكّل ، وأسعد ليلة عندهم هى التى يجدون فيها
ركناً من أركان أحد الأبواب ، يستترون فيه من برد موسكو
القارص .

كانت هذه المناظر تحز فى قلب الفيلسوف أكثر مما رآه من
مناظر رثى لها فى بيئته الأولى ، وكعاداته كان يفكر فى استجلاء
السّر فى هذا الشقاء وكيف السبيل الى القضاء عليه .

ومن الطبيعي أن يكون برماً بحياته في المدينة على اتساعها وهو الذي ألف العيش بين فلاحيه ، وعرف كيف يخدمهم بعض الشيء . ولذلك نراه بعد بضعة أشهر يشعر بتعب من هذه الحياة ، فيقصد زيارة صديق في جنوب روسيا ، على أنه كان يرمى إلى غرض آخر هو زيارة ذلك الرجل الذي سمع عنه في الصيف حين زار ضيعته في الجنوب ، وكان اسمه سوتايف وهو فلاح أوتي الحكمة ، واعتقد فيه أهل تلك الفرقة المسيحية التي ذكرناها اعتقاداً راسخاً .

زار تولستوى هذا الرجل وأعجب به ، فدعاه إلى زيارته في موسكو ، فلم يتردد الولي في انتهاز الفرصة ، وما مضت بضعة أشهر حتى كان مقياً في منزل الكونت بلباسه العجيب من جلد الماعز ، وكان هذا الرجل أول أولئك الغرباء الذين أخذوا يفدون على الكونت ويستفيدون بضيافته ، وكانت الزوجة المسكينة التي لا تحفل بمباحث زوجها تنبرم بهم . وقد أطلقت عليهم اسماً إذ لقبتهم بالغامضين .

دخل سوتايف منزل الكونت الفيلسوف وهو يعتقد أنه ند لمضيفه ، كما أن المضيف كان يعتقد أن هذا القروي ند له . وكان منظر سوتايف مثاراً للدهشة في الأوساط الاجتماعية من النبلاء وكبار القوم الذين اتصلت بهم الكونتيسة ، وعند ما

ترامت أخباره إليهم بدأوا يسألون عنه ، فكان الكونت يدعوه
ببساطة لمقابلة هؤلاء القوم وكأنه كان يعتقد أنهم قد يتأثرون
به ويؤمنون بنظرياته ، وكان هؤلاء النبلاء يتسللون بتوجيه الأسئلة
إلى هذا الولي يستطلعون رأيه في الأمور الاجتماعية فيجيبهم في
صراحة برأيه ، فمثلاً أبدى سوتايف ذات مرة استهجاناً لعادة
إعطاء السائلين بضع دريهمات ، فسئل إذن كيف يكون الإحسان؟
فأجاب هو أن يلتقط الواحد منكم هذا الفقير ويؤويه في داره
كما يؤوي أحد أفراد أسرته ، وليأخذ كل منكم عدداً من الفقراء ،
أكبر عدد ممكن ويؤويهم في داره ، هكذا يكون العمل المفيد .
ذاعت شهرة سوتايف وتقاطر كبار القوم على دار الكونت
تولستوى ليشاهدوه . وكسبت الكونتيسة كسباً اجتماعياً بأن صارت
حفلاتها مزدحمة بالناس ، وصارت هذه الحفلات تعرف بين
أعضاء الهيئة الاجتماعية باسم ليالى سوتايف ؛ فذعر حاكم المدينة
من ذلك الموكب الطويل من العربات التي تقصد دار الكونت
تولستوى ، ونحشى الفتنة ، فأرسل ضابطاً يستطلع الخبر ، وغضب
تولستوى لذلك غضباً شديداً ، إلا أن الخطوة التي خطاها الحاكم
لم يكن لها ذيول ، لأن سوتايف لما رأى أن الأمر قد بلغ إلى هذا
الحد أسرع بالرحيل إلى بلاده .

أثرت مناظر التعاسة في تولستوى تأثيراً عميقاً فاتجه بمجماع

قلبه إلى دراسة أسباب تلك التعاسة وأخذ يقيد رأيه في العلاج الذي يراه وأعلن هذا الرأي فيما بعد في كتابه «ماذا علينا أن نفعل إذن» وهو في هذا الكتاب يصل إلى النتيجة التي يلخصها في قوله : «إنني عند ما أرى الآلاف من بني الإنسان في محال الجوع والبرد والانحطاط أفهم ، لا بعقل ولا قلب ، بل بمجموع ما في من حياة ، إذ أنا وآلاف من أمثالي يأكلون أكثر من حاجتهم من طرى اللحم والسمك ، ويغطون دورهم بالأقمشة والسجاد ، ومهما يقل علماء العالم بضرورة ذلك ، فإن وجود الآلاف من الجائعين في موسكو هو جريمة ترتكب لا مرة بل دائماً ، وإنني بما أنا فيه من ترف لا أحتمل هذه الجريمة فحسب بل اشترك فيها .

هذا كان شعوره وهكذا كان تولستوى لا يستطيع أن يصبر على رؤية هذه التعاسة ، ولا يكاد يرى شيئاً لا يرضى به عقله وقلبه حتى يصبح مستنكراً .

ولقد حدث بعد سنة من إقامته في موسكو أن قررت الحكومة تعداد السكان ، فكتب إليها متطوعاً في العمل بحى سمولنسك وهو من أفقر أحياء المدينة ، وقد أراد بذلك أن يرى كيف يعيش سكان هذا الحى وإلى أى حد ينحط الناس نتيجة لإهمال الحكومة واستغلال الإنسان للإنسان ، وكم من مناظر فظيعة

شاهدها وأسر نعيش في أكواخ حقيرة تأتي الحيوانات أن تأوى إليها . وقد وصف حالة الجهل والذعر في هؤلاء الناس حين قال « كانوا إذا ما رأونا يفرون حتى يتبين لهم أننا ما جئنا إلا لمجرد التعداد فيظهرون لنا دهشين ، وهم ينظرون إلينا نظرة الأرانب رأت كلاب الصيد قد تحولت إلى عمال للتعداد » .

من تجاربه في هذا التعداد عرف الشقاء الحقيقي ، فليس هؤلاء الناس الذين يقفون في الطرقات يستجدون المارة هم الفقراء حقاً الذين هم في حاجة إلى المعونة ، بل الفقراء والتعساء هم ثلاثة أنواع . العاهرات والأطفال وأولئك الذين انحدروا في سلم الحياة وهم أكثر التعساء عدداً ، وهم الذين يصعب أن يوصف لدائمهم علاج ولا يمكن تغيير مركزهم إلا بتغيير أساسى في الحياة الاجتماعية ، أما العاهرات فيمكن معالجة حالتهن بتغيير الفكرة القائمة نحو المرأة ، وأما الأطفال فيكون ذلك بتربيتهم على ضرورة العمل .

فالحالة الاجتماعية بأكملها يجب أن تتغير ويجب أن يشعر الناس بلذة العمل بدلا من أن يكون هدف الجميع فقراء وأغنياء الوصول إلى اللذة والتمتع من غير جهد ، وبذلك يسعى الفريق القادر على أن يسخر الآخرين في العمل الذى يسعى أن يتخلص منه .

وقد بدأ يشعر أخيراً أن الإحسان ليس هو الوسيلة لمساعدة
 الفقير ، بل الوسيلة لذلك أن نعلمه العمل ونمهد له سبيله ،
 وكيف نستطيع أن يمهد له ذلك إذا كان الفاصل بينه وبين
 الفقراء كبيراً ، وإذا كان الغرض الأول الذى يرمى إليه الرجال من
 أبناء طبقته هو أن يملكوا من المال أكثر ما يستطيعون !

إنه إذا أراد مساعدة الفقير حقاً فعليه أن يفرض الاشتراك فى
 ذلك النظام الاجتماعى الذى يضحى بالسواد الأعظم من الناس
 فى سبيل تمتع القلائل ، فهو يرى أن المال أساس الشر مهما
 حاول الاقتصاديون تسويق التملك « فما دامت الهيئة الاجتماعية
 قائمة على تسخير إنسان آخر فان معنى المال كواسطة لتبادل
 المنتجات الناشئة عن العمل ، ليس إلا أنه خير وسيلة لاستغلال
 مجهود الآخرين « فهل للرق معنى آخر غير ذلك ؟ » إن استعباد
 إنسان آخر قائم دائماً على أن هذا الرجل يفرض على الآخرين
 الخضوع لأرادته . . . فاذا كان إنسان يعطى نتائج عمله للآخرين
 دون أن يحصل على ما يكفيه من غذاء ، وإذا كان يسلم أطفاله
 للعمل المرهق ، وإذا كان يترك الأرض ويرصد حياته لعمل كريمة
 فى سبيل اخراج أشياء لا رغبة له فيها كما يحدث أمام أعيننا
 فى العالم (وهو العالم الذى نسميه متمدناً لأننا نعيش فيه) فنكون

صادقين إذا قلنا إنه يقوم بهذا العمل فقط لأنه مهدد بالموت إذا لم يعمله .

للاستعباد ثلاثة طرق أولها التهديد ثم العنف ثم الإكراه بأن تنتزع من الجماهير الأرض ومخازن الطعام ثم بأن يطلب منهم تسديد ضرائب لا يستطيعون الوفاء بها ولكي يستطيعوا سدادها يقعون في الرق . وهذه الطرق الثلاث جربت وتجرب على الفقراء واحدة بعد أخرى ، فإذا عدل عن واحدة لجأ أصحاب السلطة إلى الطريقة التالية ، وما يساعد على قبول الجماهير لهذا الاستعباد نظريتان : ما يسمونه بالدين الذي ينصح لهم بالعمل في خدمة أولى الأمر ، وما يسمونه بالعلم الذي يقول إن واجب الإنسان نحو الدولة هو أهم من واجبه نحو بني جنسه ، وإنه من الواجب إجباره على العمل في سبيل الدولة إذا امتنع عن ذلك ، فترى حينئذ أن كل نوع من الرق يستبدل به نوعاً آخر .

نشر تولستوى هذه الآراء في كتابه الذي سماه « ماذا علينا أن نفعل إذن » وهو كتاب بلغ فيه غاية التحمس في شرح المساواة القائمة في الحياة الاجتماعية وبلغ فيه مبلغاً من الفن كبيراً . وقد تنبأ فيه بما يحدث في روسيا لو استمرت الحال كما كانت إذ قال « مهما نحاول أن نخفي عن أنفسنا ذلك الخطر

البسيط الظاهر الناشئ عن صبر أولئك الذين نخنتهم فقد
 ينفذ صبرهم. ومهما حاولنا أن ننفي ذلك الخطر بوسائل الخداع
 والعنف أو المداينة ، فإن هذا الخطر يزداد في كل يوم وفي كل
 ساعة وهو يهددنا منذ أمد بعيد . وقد نما هذا الخطر حتى صرنا
 لا نستطيع إلا في صعوبة أن نحفظ بأنفسنا في قاربنا الصغير
 فوق البحر الخضم ، وهو يضرب قاربنا وينذر بأن يبتلعنا في باطنه.
 ففورة العمال بما فيها من التدمير والقتل لا تهددنا فقط ، بل نحن
 نعيش فيها منذ ثلاثين سنة غير أننا استطعنا بوسائل وقتية أن نؤجل
 انفجارها وقتاً ما . هذه هي حالة أوروبا وهذه هي حالتنا بل
 هي شر لدينا ، لأنه لا يوجد لها مخرج يفرج عنها ؛ فقيا عدا
 القيصر لا يوجد في أعين جماهير الشعب مسوغ للطبقات التي
 تضطهده ، وهذه الجماهير ثابتة في مركزها بمجرد العنف والحيلة ،
 وانتهاز الفرصة أي بسرعة الانتباه ، ولكن الكراهية لنا بين شر طبقة
 الشعب والاحتقار لنا بين خيرهم تنمو ساعة بعد ساعة .

« ... فالكراهية والاحتقار بين الطبقات المضطهدة تنمو ،
 والقوى الجسدية والاخلاقية في الطبقات الغنية تضعف. والخداع
 الذي يتوقف عليه كل شيء قد بدأ يتهلل ولا تجد الطبقات
 الغنية ما تعزى به نفسها عن هذا الخطر . »

«والعودة إلى الطرق القديمة مستحيلة واعادة المكانة التي قضى

عليها مستحيلة ، ولم يبق إلا شيء واحد لأولئك الذين لا يرغبون في تغيير طريقة حياتهم هو أن يؤملوا قائلين لتظل الأمور سائرة كما هي مدة حياتنا ، وبعد ذلك فليكن ما يكون .

لا ريب في أن مثل هذه الآراء تتفق مع كثير من آراء أولئك الذين اتخذ رجال الثورة الشيوعية في روسيا كتبهم لإنجيل أمثال ماركس وإنجل وتتفق مع آراء القائمين بالثورة أنفسهم أمثال لينين وتروتسكى ، ولكن بأية قوة يعبر الفيلسوف الكاتب وأية صورة مفرغة يرسمها لحياة الطبقات الفقيرة إزاء ما ينعم به الأغنياء وما تتمتع به الطبقات الحاكمة ، فهي في الحقيقة وقبل كل شيء صورة من رسم فنان ، يرى بعينه ما لا يتضح لأعين الناس ، ويستشف من وراء الحجب بعقريته ، ما كان وما سوف يكون ، يرى ذلك الخضم الذي يداعب القارب الصغير ويوشك أن يبتلعه حيث لا نجاة .

وصف الفيلسوف العلاج لتلك الحال المحزنة فهو يشير على الطبقات المومسة التي تتمتع بكل شيء ، وهو فرد من أفرادها ، أن تنق الكارثة بأن تتدبر أمرها وتنزل عن متاعها بمحض الرضا ، بدلا من أن تجبر على ذلك أجباراً ، وهو علاج رجل أديب يعيش في عالم من الأحلام ، وعلاج رجل طيب القلب يثق بالإنسانية فهو رأى نظرى غير ما كان يفكر فيه ماركس وإنجل ولينين من ثورة عالمية .

تلاميذ ومريدون

كان لهذا الانقلاب الكبير في آراء تولستوى تأثير قوى في مظهره، فهو على الرغم من قوة جسمه قد بدت الغضون في وجهه وأخذ شعر رأسه ولحيته يميل إلى البياض . وكان أهم ما يشغله هو تطبيق تلك الآراء التي كانت تجيش في صدره : فهو بطبيعته لم يكن من أولئك الذين يكتفون بالنظريات أو ينشرون آراءهم تاركين أمر تحقيقها للزمن . بل هو في تفكيره كان رجل عمل لا تساوره فكرة جديدة حتى يعتقد كل الاعتقاد أن تنفيذها من الممكنات . ولذلك كان يعتقد أن الأغنياء لا يلبثون أن ينزلوا عن أراضيهم لفلاحهم على أثر دعوته، وأنهم يقلعون بمحض اختيارهم عما ألفوه من ترف وملاذ . وأنهم سوف يعيشون عيشة بسيطة هي عيشة الفلاح ، حينئذ يشعرون باللذة حقاً وبرضا النفس . ولا ريب في أن حماسه لفكرته كان لها تأثير عظيم في نفوس الذين قرأوه وكان لبيان أثر السحر فيهم .

وقد أخذت آراؤه تنتشر في سرعة بروسيا وأوروبا على الرغم من محاربة السلطات الحاكمة لها ، وكانت كتبه الأخيرة ، على أنها

لم تنشر إلا سراً تتخاطفها أيدي المفكرين من الشباب، وكان بعضها لا يستطيع طبعه في روسيا فيطبع في بلاد أخرى ثم يهرب إليها. وبدأ تولستوى يجد صدى لآرائه في أفئدة الكثيرين ، فيكتبون إليه الرسائل مؤيدين أو مستفسرين ويرد عليهم الفيلسوف شارحاً هذه الآراء . وجماعة من هؤلاء الأنصار والمريدين يلتفون حوله ليستزيدوا من آرائه وحكمته وينشروا هذه الآراء بين أصدقائهم . ولعل من أكثرهم أثراً في حياة الفيلسوف فلاديمير شترتكوف، وهو شاب اتصل به في سنة ١٨٨٣ ولم يكن شترتكوف من عامة الشعب بل هو من الطبقة الارستقراطية ، فوالده قائد من قواد حاشية القيصر واسع الثراء، ووالدته من أكبر الأسماء في العاصمة الروسية، وقد تعلم شترتكوف نفسه في مدرسة الضباط والتحق بالبحيش وكان جميل الطلعة ظاهر النعمة، فتفتحت أمامه الأبواب وتنبأ الناس له بمستقبل باهر ، على أنه في سنة ١٨٧٩ أراد أن يستقيل من الجيش ويعمل في الخدمة الاجتماعية . فتوسل إليه والده أن يحصل على إجازة لمدة سنة بدل الاستقالة في الحال عله يعود إلى رشده ويظل في عمله ، فقام بتلك الإجازة وسافر إلى انجلترا فاذا عاد منها رغب إليه والده أن يستمر في الجيش بعض الوقت . ويؤكد تولستوى أن شترتكوف كان في أول زيارة مرتدياً ثوباً حربياً ، وتحدث إليه الفيلسوف

شارحاً فكرته في أن الخدمة العسكرية لا تتفق والمبادئ المسيحية ،
وفي الزيارة الثانية كان الشاب قد هجر الجيش وأخذ يحقق ما
تصبو إليه نفسه من العمل في سبيل الخدمة الاجتماعية ، ورأى
أن خير سبيل لذلك هو أن يعمل على نشر آراء تولستوى ؛ فهو ما
يمكن أن نسميه في حياتنا الحديثة برجل الدعاية. وسرى أثر
شرتكوف بارزاً فيما بقي من حياة أستاذه .

لم يكن الفيلسوف نفسه أقل تأثراً في نفوس زائريه من كتاباته ،
فقد كان هؤلاء الزائرون يذهبون إليه وهم ينتظرون أن يروا رجلاً
محطماً أضناه طول التفكير فاذا هم أمام رجل وخطه الشيب ، أجل ،
وبدا في قامته شيء من الانحناء ، أجل ، ولكنه مليء بالحياة
لا يقتصر حديثه على الموضوعات الدينية والاجتماعية بل يسترسل
في الحديث في كل موضوع ، وهو خلاب بطلاقة وفصاحة
بيانه . ولقد رآه صديق في تلك الفترة وكان قد عرفه في أيام
شبابه فعجب لما ظهر عليه من رقة في معاملة الناس وقال إنه كرجل
تجددت حياته إذ نفذ إلى نفسه إيمان جديد وحب جديد .

وقد كتب ييروكوف الذي قام بنشر مؤلفات الفيلسوف
باللغة الفرنسية وكتب ترجمة حياته تعتبر الترجمة الأصلية باللغة
الروسية ، يصف كيف تعرف إلى الفيلسوف فقال « كنت
قد تعرفت قبل ذلك إلى شرتكوف وتعلمت منه كيف يجب

مؤلفات تولستوى وقد أنتظرت أن أرى فيه كهلاً يقضى وقته فى دراسة مؤلفات رجال الدين من المسيحيين فوجدت رجلاً طيب القلب مخلصاً ، فى بساطته سحر وجاذبية « وكانت الأسرة تشرب الشاي عند زيارة بير وكوف وتكلم تولستوى أولاً فى تعاليم الرسل ، ولكن الحديث انتقل إلى علاقة المهن واتصالها بالحياة المسيحية ، فقال تولستوى فى بساطة : يستطيع كل إنسان أن يجمع بين تعاليم المسيحية وبين أية مهنة إلا مهنتى القانون والجيش . ثم نظر إلى ملابس بير وكوف وكان فى ثياب ضابط فى البحرية وقال معذرة لتفوهى بهذا القول أمامك . ولقد تأثر بير وكوف بهذا الكلام وخجل حتى لقد اعتزل عمله ولم يرتد تلك الملابس الرسمية من بعد .

لم يفقد تولستوى طول حياته قدرته على الضحك فى براءة وحماسة كما يضحك الشبان ، ولا قدرته على تبيان عيوب نفسه والسخرية منها ، وكانت تأخذه أحياناً روح المرح فيشترك فى الحفلات التى تقيمها زوجته ويرقص فى خفة قد يحسده عليها الشبان ، وحينئذ يظهر كأنه قذف بعشرين سنة من عمره .

ومن بين الذين عرفوه ومالوا إلى تعاليمه جولدنفايزر وهو شاب موهوب وعازف على البيانو معروف ، كان قد شارك شليابين فى إحدى الحفلات الموسيقية بمنزل أسرة تولستوى بموسكو ، فتأثر

بالفيلسوف وظل صديقاً له وتلميذاً طول حياته .

ومن بينهم ناظرة مدرسة اسمها ماري شमित قرأت كتب تولستوى فقررت أن تغير من حياتها وهجرت المدرسة التي كانت ترأسها . وكان يقصدها الفتيات من علية القوم ، وامتنعت عن الذهاب إلى الكنيسة ورفعت صور القديسين من منزلها واستبدلت بهم صور تولستوى ، وصارت تكسب قوتها بنقل صور من كتبه الممنوعة وبيعها للناس ، ثم بعد قليل انضمت إلى تلك الجمعيات التي أخذت تنبث في طول البلاد وعرضها ، حيث يعيش الناس عيشة بسيطة حسب الأسلوب الذي يدعو إليه تولستوى ويتركون سالف ثروتهم وترفعهم .

وقد اتصل به المرمود مترجم مؤلفاته إلى الإنجليزية لأول مرة في سنة ١٨٨٨ ووصفته الكونتيسة بأنه « رجل ضخم الحثة وجيه المظهر كان يرى من واجبه أن يتبعني في الوقت الذي أكون فيه ميالة إلى العزلة » .

ولعل أغرب تلاميذ تولستوى وأكثرهم تأثراً به أمير شاب هو البرنس هلكوف وهو لم ير تولستوى في حياته ، ولكنه تأثر بكتابته فوزع أكثر أراضيه على فلاحيه وتطوع للعمل في المصانع ، وكان يأبى أن يتناول أجراً طول المدة التي كان يشعر فيها أنه لم يتقن العمل ، فإذا أتقنه عين أجراً لنفسه وقد أعلن فيما بعد خروجه على الكنيسة

فنى إلى القوقاز وفيها عاش بين تلك الطائفة من المسيحيين التي وصفنا اتصال تولستوى بها من قبل ، وكانت الكنيسة تعتبرها هي والملحدين سواء ، فرأت الحكومة نقله إلى منفى آخر في ولايات البلطيق . وفي سنة ١٨٩٨ سمحت له بمغادرة البلاد فذهب إلى إنجلترا حيث عاش بين جماعة من معتنقي مذهب تولستوى وتلاميذه .

أخذ نفوذ تولستوى يتزايد بمرور السنين فتألفت في إنجلترا وهولندا والولايات المتحدة وغيرها من البلاد جماعات تؤمن بتعاليمه وتريد أن تعيش حسب آرائه حياة بسيطة بعيدة عن الترف وتعتقد بالأصول الأولى للمسيحية ولا تتأثر بتعاليم الكنيسة القائمة ، ولم يكن تولستوى من المشجعين على تأليف هذه الجماعات ؛ فقد كان غرضه الأكبر كما نرى من كتبه أن تنزل الطبقة العليا عن امتيازاتها وبذلك يصلح المجموع ويعيش الناس سعداء . لذلك لم يكن عجباً أن تنحل تلك الجماعات التي تألفت ونمت وجعلت من هذه التعاليم نظاماً وطيداً . وقد صرح أكثر من مرة أنه لا يقر هذه الجماعات في نظامها وكتب في مذكراته بهذه المناسبة عند ما زاره رئيس هذه الجماعات في بلاد المجر فقال « تحدثت إلى دوشان ولقد وضع نفسه على الرغم من إرادتي ممثلاً لي في بلاد المجر فأراد أن يستمع مني النصيحة في الطريقة التي

يتبعها فانهزت ، هذه الفرصة لكي أوضح هذا الأمر لنفسى وأبين له أن التحدث عن تعاليم تولستوى ، والحضور لديه للاستماع لنصائحه خطأ كبير؛ فليس فى الأمر مذهب خاص أو تعاليم خاصة لتولستوى وليس فى الأمر إلا تعاليم واحدة هى التعاليم الحققة ؛ التعاليم الدائمة العامة التى بنيت أحسن بناء لى ولغيرى ، وهى فى الأنجيل .

١٢

بين الأدب والفلسفة

تغيرت آراء تولستوى فى الحياة والعالم ، فلم يعد يرى فى هذه الحياة غرضاً غير الإصلاح الاجتماعى ، وذهب فى فكرته إلى حد إنكار ماضيه واعتبار الآثار الفنية الخالدة التى زاد بها فى ثراء الأدب العالمى ، إن هى إلا نوع من اللغول طائل من ورائه وأخذ يحمل على ما يسمى بالفن ويرى أنه عبث ينجى عن أعين الناس حقيقة الحياة . وصار يعتبر أن أية كتابة يجب أن يكون غرضها تحقيق فكرة ، أما الأدب الصنف فلا قيمة له . ومن البديهي أن يخشى رجال الفن أن يفقد تولستوى مقدرته الفنية بعد اتجاهه الحديد . ولكنه ما لبث أن وضع مؤلفات تدل على

مقدرة فنية فائقة، وتدل على أن الساحر لم يفقد عصاه وإن حاول في بعضها أن يرمى إلى مقصد غير المقصد الفني . ففي سنة ١٨٨٦ نشر قصة « موت إيفان ايلتش » ثم نشر بعد سنتين الرواية التمثيلية « قوة الظلام » وفي السنة التالية لها قصتي « سوناته كرويتزر » و « الشيطان » .

ومع ذلك نجد لهذه القصص علاقة وثيقة بحياته الخاصة وآرائه الجديدة؛ فقد وصف في القصة الأولى حياة قاض من الطبقة العليا المثقفة عاش عيشة أهل تلك الطبقة لا يهتم إلا بنفسه ثم تحدث له حادثة تافهة تؤدي به إلى المرض الذي مصيره موت محتوم ، وهو في مصيره إلى الموت يتدبر في أمر نفسه ويعرض حياته التي قاربت نهايتها فيبدو له في آخر الأمر أن السعادة الحقيقية في انكار الذات والتطوع لخدمة الحياة الإنسانية ثم يموت غير تارك أى أثر في نفس مخلوق .

لم يبلغ تولستوى في قصة « سوناته كرويتزر » المستوى الفني الذي بلغه في القصة السابقة، ولكنه مع ذلك أوجد تماسكاً في جميع أجزاء القصة بمجرد الجوالقام الذي وضعها فيه . وقد تولدت لديه فكرة هذه القصة من عدة عوامل: أولها أنه كان ذات مرة راكباً في قطار فاذا أحد الركاب ينقض عليه ويأخذ في رواية فصول من حياته المؤثرة ، وكان يقصها في تأثر ظاهر وموضوعها خيانة

زوجته له ، وحدث أن زاره في قصره الريفي الممثل الشهير بلجاكوف وألقى بعض الفصول المؤثرة المقتبسة من مؤلفات دستويفسكى بصوته الرنان والقائه البديع ، فأثار في نفسه الرغبة لأن يؤلف قصة تكون ذات حوادث مؤلمة تصلح لأن يلقي الممثل منها بعض المنتخبات . ثم عزف في أثناء هذه الزيارة أحد أبنائه مع معلمه في الموسيقى القطعة الموسيقية « سوناتة كرويتزر » لبتهوفن الخالد ، فأوحى ذلك عنوان القصة ووسيلة التقرب فيها بين العاشق والزوجة الخائنة .

وهي قصة يرويها زوج في القطار، كان متزوجاً من فتاة جميلة يعيش معها عيشاً رغيداً وأحاطها بكل أنواع الترف وهو تاجر ميسور الحال . وقد قدم إليها شاباً من أعز أصدقائه فصار هذا الشاب يختلف إلى البيت وترداد صلته بالزوجة لا سيما بعد أن اكتشفا أنهما مغرمان بالموسيقى ، فيستطيعان أن يجتمعا للعزف معاً وكان الزوج كبير الثقة بالزوجة والصديق ، ثم أخذت عيناه تتفتحان لأشياء أخذها عليهما ، أو هي الغيرة بدأت تستيقظ في نفسه ثم ملكت عليه حواسه فاذا هو يفاجئهما يوماً وهما في غرفتهما فيقتل الزوجة ويهرب الصديق .

يرى بعض الناقدين أن هذه القصة كريمة بموضوعها وبالآراء التي أراد الكاتب أن ينشرها ، فهي تكاد تمجد ذلك النزاع الذي

ينشأ بين زوج وزوجته نتيجة لعامل كرهه مثل الغيرة ، وهي تكاد تثبت أن هذا النزاع طبعى فى الحياة وتنقله من مجرد حادث فردى إلى نظرية عامة وإلى مجال نزاع بين الجنسين الرجل والمرأة ؛ فالرجل قد تغلب من أقدم العصور على المرأة بقوته الجسدية فأوجدت الطبيعة فيها سلاحاً تدافع به عن نفسها هو المكر والخديعة . وإذن فالزوجان إذا ظهرا أمام الناس بأنهما يكمل أحدهما الآخرهما فى الحقيقة عدوان يتقاتلان كل بسلاحه ، فالرجل يحاول السيطرة بقوته والمرأة تحاول خداع الزوج لتنتقم لنفسها ولجنسها منه ، وهذا يحدث دائماً ولولم يرد الزوجان ذلك . ومثل هذا الرأى ظاهر الخطأ ولا يجب أن يكون فى الطبيعة وإن وجد فهو شاذ .

ومن العجيب أن يتجه تولستوى هذا الاتجاه وهو الذى كان قد سيطرت عليه النزعة الدينية ورأى فى معيشة آباء الكنيسة المسيحية المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه الرجل من طهارة وتقى . ومع ذلك كان تولستوى زوجاً وله إلى ذلك الحين ما يقرب من ثلاثة عشر طفلاً .

وليست هذه القصة فى مستوى قصصه العظيمة مثل «أنا كرينا» و «الحرب والسلام» فتلك قصص جامعة تقتطع من حياة الإنسانية عصوراً بأسرها وتحلل هذه العصور وتحلل حشداً من

الناس تحليلاً يصلح لكل الأزمان ، فأين منها هذه القصة التي يرويها رجل في القطار وتدور حوادثها على رجل وزوجته وعشيقها ؟ على أنها مع ذلك تثبت تماماً أن تولستوى لم ينس فنه وإن اعتبر هذا الفن وسيلة للإعراب عن آرائه .

أحدث ظهور هذه القصة رجّة صامتة ، فعند ما كتبها تولستوى لأول مرة وأراد قراءتها على أفراد أسرته ومريديه رأى بعض الحاضرين الذين أطلعوا عليها من قبل أن من الواجب ألا يحضر الفتيات قراءتها ووافقهم الكاتب على هذا ، ثم قدمت للرقابة فإذا أمر يصدر بمنع نشرها ، وبحث الكونتيسة تولستوى سبب مصادرتها فتبينت لها أن ذلك كان بأمر القيصر . ولما كان الكثيرون من الذين سمعوا القصة أوقروها في الطبوعات السرية التي كانت تصدر دائماً إثر مصادرة مؤلفات تولستوى رأوا فيها ما يدل على تبرم تولستوى بحياته الزوجية بل إن زوجته نفسها شعرت بشيء من ذلك ، فقد أرادت أن تكون هي العاملة على رفع هذا المنع من نشرها . وذهبت إلى بطرسبرج لمقابلة القيصر فتحدث إليها مبدئياً استياءه من تطور تولستوى ونزعته نحو آراء مثيرة في الأخلاق والاجتماع وابتعاده عن الكنيسة ، فأخبرته أنها تحاول العودة بزوجهما إلى التأليف الأدبي والفني ولذلك فإن منع قطعة فنية وإن كان فيها شيء من الآراء الغريبة قد يدفعه إلى العودة إلى

كتاباته الاجتماعية والدينية ، فأعرب القيصر عن رغبته في أن يعود الكاتب إلى أدبه إذ هو كاتب ممتاز حقاً . ثم أراد القيصر أن يجاملها فسمح بنشر القصة في مجموعة المؤلفات ، وخرجت الكونتيسة مغتبطة لهذه الزيارة التي قابلها فيها القيصر خير مقابلة ، وهياً لها زيارة للقيصرة بنفسه وذكرها للأخصاء فامتدحها ، وبلغها هذا المديح ، أما الفيلسوف فقد ضايقه سعى زوجته وقال في رسالة لصديق : « لقد وصلت زوجتي أمس من بطرسبرج بعد أن قابلت القيصر وتكلمت إليه في شأن مؤلفاتي لغير ما ضرورة ووعد بأن يسمح بنشر القصة في مجموعة المؤلفات وهذا شيء لا يسرفي فلا بد أن هذه القصة تحتوي على جوانب سيئة ، لقد كرهتها أريد أن أنساها ، وكانت تتغلب على نزعات شريرة عند ما كتبها ، وسأحاول أن أتجنب مثل هذه النزعات في المستقبل » .

• • •

ذكرنا أن تولستوى أخرج في هذا الوقت رواية تمثيلية هي « قوة الظلام » وهي قصة مخزنة عن حياة الفلاح كتبها وهو طريح الفراش سنة ١٨٦٦ وبعد ذلك بقليل قام بتمثيلها بعض الأشراف في بلاط القيصر ، ويقال إن القيصر أعجب بها إعجاباً شديداً ، على أن رئيس الأساقفة كاشف القيصر بأمرها ، وأخبره أنها •

تظهر فلاحى روسيا فى مظهر غير لائق إذا ما مثلت فى غرب أوروبا ، ونجح فى إقناعه بأن يصدر أمره بعدم تمثيلها . وهكذا ظلت بعيدة عن المسرح الروسى إلى سنة ١٨٩٥ . ولا ريب فى أن حرمان تلك البلاد من تمثيلها لم يكن عملاً موفقاً ؛ إذ الواقع أنها مثلت على مسرح أنطوان بياريس سنة ١٨٨٨ ونجحت نجاحاً غريباً حتى صارت تمثل فى ثلاثة مسارح باريسية مختلفة فى وقت واحد ، وقد امتدحها زولا امتداحاً كبيراً وكتب برنارد شو لمؤلفها فيما بعد يقول «إنى لا أذكر شيئاً جذبنى فى جميع الروايات التمثيلية قاطبة . مثل ذلك الجندى الشيخ فى رواية قوة الظلام ، وفى رأى أن ذلك المنظر الذى نرى فيه السكيرين ، وهما طريحان على القش ، وأكبر المتشردين سناً يرفع الأصغر منهما فوق جبينه ، وأنا نيته ، هو منظر ذو تأثير عميق قلما تصل إليه هذه المناظر الخيالية » . ولا ريب فى أن شو تأثر فى مؤلفاته الأولى بتولستوى وطريقة عرضه لآرائه .

بعد ثلاث سنوات من تأليفه لهذه الرواية وضع رواية تمثيلية أخرى اسمها « ثمرة الثقافة » وهى نقد لفكرة البحث فى الروحانيات والعقلية التى تتجه إليه ، وفيها عرض ماهر لمسألة امتلاك الأراضى ، وقد نالت نجاحاً كبيراً عند تمثيلها فى المسرح القيصرى .

واتخذ تولستوى الرواية التمثيلية وسيلة لإبداء أفكاره في « الحثة الحية » وقد وضعها في نهاية حياته ، ثم في الرواية التي لم يتمها وهي « النور بضىء في الظلام » وموضوع هذه الرواية حادثة واقعية وفيها يبين كيف يكون للقانون أحياناً مساوئ حين يتدخل في الحياة الخاصة ، وذلك أن رجلاً يمل حياته الزوجية فيرى أن يدعى الانتحار كي يبدأ حياة جديدة مع صديقة مخلصه كان يحبها منذ أمد بعيد ، وتزوج الزوجة الأولى من رجل آخر ، وتعيش عيشة هنيئة ، وكلاهما واثق أنه انتحر حقيقة . ثم يظهر أنه لا يزال حياً ويتهمان بتهمة الزواج مرتين ، ويرى الزوج الأول بعد أن يعلم السعادة التي تتمتع بها زوجته ، أن لا سبيل لانقاذها غير الانتحار .

١٣

شقاق

لكي ندرك حياة تولستوى بين أسرته يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، وإلى ذلك الزمن الذي تزوج فيه الضابط تولستوى وهو من أكرم الأسر الروسية وأقدمها ، من فتاة صغيرة ابنة طبيب . كان في الرابعة والثلاثين من عمره وقد عرف الحياة

وملاهيها وملذاتها ، وانغمس فيما يأتيه الشبان عادة ، والجنود بنوع خاص ، من خمر ونساء وميسر ؛ وهى فتاة صغيرة لا تعدو الثامنة عشرة من عمرها ، لا تخلو من سداجة ولا من دهاء . وتم هذا الزواج فدخلت فى تلك الأسرة العريقة ، وبدأت تتحمل تبعاتها بما يليق بالأسرة الواسعة الثراء ، وأخذت تدبر أمور زوجها وتحيا حياة بنات طبقها ، بقدر ما يسمح به لسيده مقيمة فى أملاكها الشاسعة بالريف .

أقبل الزوج على زوجته الصغيرة بما أثر عنه من مبالغة فى كل شئ ، يأتيه ، فكأنه يعاشر عشيقة لا زوجة ، وأحبت الزوجة رفيق حياتها حباً كبيراً ، زاده ما رأت فيه من استسلام وتركه الأمور لها ، وهى بطبيعتها ميالة للسيطرة فصارت ربة البيت بمعنى الكلمة ، فهى المتصرفة فى شئونه . ولم يلبث هذا الزواج أن أتى بثمرته وأخذ الأطفال يظهرون فى العالم تباعاً ، وكان من الطبيعى أن يترك الزوج ماضيه فلم يعد للخمر والنساء والميسر . وانتهج حياة جديدة واتجه للكتابة والتأليف فوضع تلك القصص العظيمة وكانت زوجته تساعدته فتمضى الساعات فى نقل الرموز التى كان يسود بها الصفحات لكى تصبح صالحة للنشر . وكم كان هذا العمل شاقاً ولكنه كان لذيقاً لديها تقبل عليه راضية .

لم يكن في هذه الحياة موضع للشكوى أو الشقاق بين الزوجين ؛ فهي مسيطرة على كل أمور البيت والضياح ، والزوج لا ينازعها في ذلك ، وإن كان يتدخل أحياناً لينفذ بعض مشروعات اجتماعية تراها الزوجة خيالية ولكنها ترى أن لا بأس فيها . والزوج منصرف بوجه خاص إلى التفكير في مؤلفاته القصصية التي تقدرها الزوجة حق قدرها وهما يعيشان في رخاء .

لكن ما لبث الزوج أن هجر الكتابة ، وأقبل على قراءة كتب وبحوث غريبة وأخذ يقبل على موضوعات لا ترى الكونتيسة من ورائها طائلاً ؛ وكانت الزوجة مسيحية متعبدة تقوم بواجبات الكنيسة وشاركها زوجها في ذلك عند بدء نزعته الجديدة ، ولكنها كانت تنكر البحث في أمور الدين ، وكتبت إلى أختها تذكر انكبابه على دراسة الأناجيل وترجو أن يمر هذا الطور على زوجها ويحول كما تحول الأمراض . ويأخذ الزوج في دراسة اللغة العبرية لزيادة التعمق في هذا البحث فلا تستطيع أن تخفي الزوجة استياءها مما تسميه غباوة لا فائدة فيها . وليس من العجيب أن تشعر الكونتيسة هذا الشعور إذ وقتئذ كانت في شرح شبابها وروعة جمالها ، تحب الشجرة والمجتمعات واليابس الجميلة ، على حين كان الزوج لا يمل المناقشة في الديانة المسيحية والمذاهب الدينية .

ثم أسرع الزوج في خطاه ، واقتربت فكرته الدينية بفكرة اجتماعية ، فهو يرى أن حياة الأغنياء لا تطاق وأنهم يستعبدون الطبقات الفقيرة ، ويسخرونها لملاذهم ، ويرى أن الأمور تسير إلى ثورة لا يمكن اتقاؤها إلا بنزول الأغنياء من تلقاء أنفسهم عن ملاذهم وعن أموالهم المغتصبة من الفقير العامل ، الذي بذل في سبيلها أعصابه ودمه .

ثم تقدم الزوج بعد هذه النظريات إلى زوجته يعرض عليها أن تنزل عن ضياعها الواسعة وأن يعيشا حياة بسيطة تتفق والتعاليم التي ينادى بها ، فإذا كان تأثير هذا الكلام في الزوجة ؟ لقد وقعت في حيرة من أمرها ودهشت لجرأته واستولى عليها الغضب وحاولت أن تكظم هذا الغضب فلم تفلح ، فكيف يضحى بسعادتها وسعادة أولادها أو ما ترى فيه السعادة ؟ أما الزوج فلم يفهم كيف تأتي زوجته تنفيذ ، فكرته وهو يكتب لصديق سنة ١٨٨٢ يصف حالته مع أسرته : « لا أعلم لماذا قدر على أن أرى غباوتهم ظاهرة في حين هم لا يستطيعون أن يفهموا خطأهم . وهكذا تظل في نضال دون أن يفهم بعضنا بعضاً ودون تعاتب بيننا ، غير أنهم كثيرون وأنا فرد واحد » .

لم يكن تولستوى في يوم من الأيام كبير التعلق بأولاده الكثيرين ، وكان يترك أمرهم لزوجته فهي التي تحتضنهم وتقوم على

تربيتهم . غير أن الفيلسوف يتدخل بين حين وآخر في أمر هذه التربية ليطبق فكرة من أفكاره ثم يعود فيهمل شأنهم . ولكن وجود الفيلسوف نفسه ، في منظره المهيب بشعره الكثيف وملابسه البسيطة التي هي أقرب إلى ملابس القرويين ومروره في غرف الدار ذهاباً وجيئة ، وهو ينتقل من غرفة نوميه إلى بعض الغرف الأخرى لا سيما مكتبه ، وهو دائم التفكير تائه في بيداأفكاره ، لا بد أن يؤثر في هذه الحقبة العديدة من الغلمان والفتيات ، الذين جاء بهم الفيلسوف إلى هذا العالم كما يجيء الهربصغاره دون أن يدري . وإذا كان بين هؤلاء الغلمان من يشبه أباه في المظهر فلم يكن بينهم من يشبهه في تفكيره . وكان تدخله أحياناً في أمور أولاده يشبه تدخل العالم المحرب عند ما يريد أن يقف على نظرية في حياة حي من الأحياء . وكان يهتم لأموارهم إذا ما أدركوا السن التي تفصل بين الطفولة والرجولة . ولعله كان يخشى عليهم تلك النزعات التي دفعت به في مبدأ الرجولة إلى أن يأتي أموراً أثبتا نفسه فيها بعد . وقد تزوج أكثر الفتيان في سن مبكرة ، وكان زواج بعضهم موفقاً بعضهم غير موفق . ومما ساعد على أن يكون هؤلاء الفتيان من غير الساعين إلى الرزق أن أباهم فكر في تطبيق نظرياته ولكن في شيء من التعديل ، فقسم أراضيه وضياعه

الواسعة بين أولاده وزوجته ، فأثار هذا التقسيم منازعات بين الاخوة لا نهاية لها .

على أنه كان أكثر توفيقاً في بناته ؛ فالكبرى منهن ، تاتيانا ، فتاة مهذبة تحب التصوير شديدة العطف على أبويها . والتي تليها ، ماشا ، أظهرت ميلاً شديداً للمذهب أبيها فرفضت قسطها من ثروة الأب عند توزيعها ، وكانت تغسل ملابسها بيديها ، وأخذت تبحث عن مهنة فعملت ممرضة متطوعة ، وكانت إذا ما ذهبت إلى الريف أخذت في العناية بآبناء الفلاحين ، فقارب ذلك بينها وبين أبيها واتخذها كاتبة له تقوم بنقل مسودات كتبه وترتب رسائله .

ثم تأتي الابنة الثالثة الكسندرا وكانت فتاة جبارة لا تخضع لغير مربيتها الإنجليزية . أما الصغيرة فكانت ودیعة هادئة الطبع كثيراً ما تصاب بالأمراض .

• • •

هكذا كانت حياة تولستوى بين أسرته حياة يحسد عليها في الظاهر ، فهو في ثرائه الواسع وفي كثرة أولاده لا بد أن يكون محسوداً من الآباء ، وهو في شهرته العالمية لا بد أن يكون محسوداً من الأدباء والكتاب ، ولكنه كان في الحقيقة غير سعيد ؛ فالآراء التي اعتنقها ، والتي وجدت صدى غريباً في نفوس الملايين

من أبناء تلك الأمة التعسة ، وجذبت إليه من أنحاء روسيا بل من أنحاء العالم جماعة من المتحمسين يعتنقون مذهبه ويسيرون على هدايه ، قد حملته عبثاً لا بد أن ينهض به ، ووضعت على كتفيه ثقلاً لا بد أن يسير به إلى النهاية . وكان ينبغي لكى يكون سعيداً أن يجد بين أفراد أسرته من يفهمه كل الفهم ، ويجد قبل ذلك في زوجه أكبر مساعد له في رسالته ، ولكنه ويا للأسف لم تكن عند ظنه . فهي قد قدرت ما لزوجهما من نبوغ حقاً حين كان زوجه يكتب تلك القصص الخالدة التى ظهر أثرها فيما تدره من مال يزيدهما ثراء فوق ثراء . ولكنها لم تعد تفهم زوجها حين هجر القصة إلى تلك الكتابات العجيبة وتلك البحوث التى لا طائل من ورائها فى رأيها . ولا فائدة منها إلا تنغيص حياتها وحياة أولادها . ولا يمكن أن يجنى منها الأديب ثمرة إلا أن صار مكروهاً من الكنيسة والدولة ، تنظر إليه الهيئات الرسمية نظرة الخوف والغضب .

لقد حاولت منذ لاحظت تحول زوجها إلى تلك الآراء أن تنشئ زوجها عن السير فى الطريق الخطر الذى رسمه لنفسه فلما رآته يأبى إلا الاستمرار فى بحوثه ، عللت النفس بأن ما به إن هو إلا حمى عابرة ، فإذا هو يستمر فى سبيله ، وحينئذ لم يسعها أن تسكت ، وصارحت زوجها بالشكوى ولأول مرة رأت منه إعراضاً

وعناداً ، ولم تكن قد اعتادت منه الإعراض والعناد ، فبدأت بينهما تلك الحرب الخفية التي استعملت فيها أسلحة مختلفة . والغريب في هذه الحرب أن كلا من المتحاربين كان لا يستطيع الاستغناء عن الآخر ، فهي ترى في استمرار تولستوى على عناده ، دليلاً على تحول قلبه عنها فتبكي وتصخب ، وهو لا يطيق فراق زوجته ، ولا يطيق مع تقدم سنه أن يجعل من علاقة الزوجية علاقة صداقة هادئة ، بعيدة عن ذلك الاندفاع الذي ينغمس فيه الشبان . وهكذا تسير بينهما هذه الحرب الخفية . يتهادنان فيها وقتاً قصيراً ، ثم يعودان إليها في أشد ما تكون .

لم يكن هذا النضال ليخفي على المحيطين به من أبنائه وبناته ولا على تلاميذه ومن الطبيعي أن ينقسم الأبناء فريقين فريق يؤيد الأم وفريق يؤيد الأب ، ومن الطبيعي أيضاً أن يكون التلاميذ جميعاً في صف أستاذهم ، ويكون أشدهم تحمساً لآراء الفيلسوف أشدهم حمة على الزوجة . وهنا نفهم سر الكراهية التي قامت بين الزوجة وبين تشرتكوف أكبر داعية لمذهبه .

لقد رأت في آرائه الأخيرة خطوة جديدة هي ميل زوجها عن حبها وزهده في علاقتهما وهو الرجل الذي كان يندفع إلى زوجته اندفاع العشيق إلى عشيقته . وهو لا يزال يندفع أحياناً ، ولكن شيئاً في عقله يقف حائلاً دونها ، وينذر به بأن نزعاته الجسدية نحو

الزوجة تحول بينه وبين تلك الرسالة التي يحاول أن ينهض بها
لخير المجتمع .

وهو بلا ريب كان يشعر بأكبر السعادة في هذه الزوجة التي
تسهر على أمواله وضياعه ؛ ولكن هاتفاً في نفسه يسأله دائماً : إنك
تدعو الأغنياء إلى النزول بمحض رغبتهم عن أموالهم لكي يحققوا
السعادة والعيش الرغيد لمواطنيهم ؛ فإذا فعلت أنت ؟ ستقول إنك
تركت إدارة ضياعك الواسعة وانصرفت إلى رسالتك . أجل
ولكنك تركتها في يد أقدر منك على إدارة هذه الضياع الواسعة
وتنمية الثروة لفائدة الأفراد القلائل من أولادك لا لنفع الفقراء
والفلاحين كما تزعم . ثم إنك لا تكتفي ، بل تزعم بأنك تضع
المؤلفات لخير الإنسانية ، ولكن هذه الكتب تدر عليك أيضاً من
الربح الوفير وتزيد من ثرائك وتحجز المال عن الفقراء ، فإذا
فعلت ؟

يقسو الهاتف عليه ولكن ماذا يفعل ؟ إنه لا يجد الشجاعة
لانتزاع هذه الضياع من زوجته وأسرته المتزايدة ، ولا يستطيع أن
يمنع الأموال المتدفقة من كتبه ولكنه ، يتخذ خطوة أولى فيعلن
أنه نازل عن حقوقه في كتبه الاجتماعية ، واهب هذه الكتب . وهنا
تهب الزوجة مدافعة عن حقوقها وحقوق أولادها وتقوم بين الزوجين
عواصف من الشقاق تهدأ حيناً ، ثم لا تلبث أن تعود أقوى مما كانت

تلتمس الزوجة وسائل عدة كي تحمل الفيلسوف على الإقلاع
 عن نزعته فإذا كان الكلام لا يقنعه فقد يكون الفعل أكثر
 إقناعاً . ولقد أوحى لها تفكيرها أن تجرب في إقناعه فكرة الانتحار
 أو الظهور بهذا المظهر . ففي ذات ليلة من الليالي اشتد بينهما
 النقاش ، فجرت الزوجة إلى الغابة حيث خلعت ملابسها وارتدت
 على الثلج وهي تأمل أن تصاب بمرض يودي بحياتها ، فلما بحث
 عنها الأتباع وجدوها على هذه الحالة فحملوها إلى الدار، ولكن
 جسدها القوي لم يتأثر. وانتهت هذه الحادثة بالصلح بين الزوجين .
 تكرر الخصام الكريه بين الزوجين ، وكان كريهاً لأنه كان ظاهراً
 أمام أعين جمع من الناس لا يتركونهما إلا وقت النوم ، فهناك
 الأولاد العديدون وزوجات المتزوجين منهم ، وهنالك التلاميذ
 العديدون الذين أحاطوا بالفيلسوف وعاشوا في ضيعته حسب
 تعاليمه وأكثر هؤلاء يؤيدون الفيلسوف في وجهة نظره ، وهم
 متأثرون بآرائه التي ترتفع إلى السماء ، ولا يشفقون على الكونتيسة
 التي تنظر لأموال الأرض .

ولعله مما يزيد في قبح هذا الشقاق أن الفيلسوف تخطى مراحل
 الشباب وقطع من العمر ما يعتبر حداً لمرحلة الحياة . أما الزوجة
 فإن لم تكن في شرخ الصبا فهي لا تزال محتفظة بمسحة من جمال .
 لم تفد محاولة الانتحار في حمل الفيلسوف على العدول عن رأيه

في النزول عن حقوق الطبع في كتبه الأخيرة، فهي تجرب وسيلة أخرى ما أقساها .

ذلك أنه وقد على قصرهم في الضيعة عازف من الماهرين في العزف على البيانو ، وكان شابا وسيما جميل الطلعة ، فأخذت الكونتيسة تتقرب إليه وقامت الألفة بينهما، وأخذ الجماعة المحيطون بهما يتكلمون في أمر هذه الألفة والألسنة تسترسل في القول، ولحظ الزوج نمو هذه العلاقة في ألم كان يخفيه ولكنه ولا شك كان ملحوظاً لدى الذين من حوله، وزادت كراهية الكارهين للزوجة .

أكانت هذه العلاقة حقيقة أم مجرد تظاهر من الزوجة ؟ إن الزوجة في مذكراتها تؤكد أن العلاقة بريئة ، وهي بلاريب بريئة ، ولكن هل ننكر عليها إذا سعت وراء السعادة التي حرمها بالروح إن لم يكن بالجسد ؟

انتهى هذا الحادث بأن طلب تولستوى ذات مرة من الموسيقار ألا يعود إلى داره مرة ثانية .

كان هذا النزاع بين الزوجين تعقبه فترات من الهدوء كما تعقب العواصف فترات من الشمس الساطعة، ولكن موضوع النزاع لا يتغير . وفي إحدى هذه الفترات الهادئة وضع تولستوى نشرة صغيرة على سبيل المزاح وصف فيها نفسه وأسرته سماها

نشرة المرضى في مستشفى المجاذيب بأسنايا بوليانا ، وفيها وصف نفسه بقوله . مجنون من النوع الهادئ يتوهم أنه قادر على تحويل حياة الناس بمجرد الألفاظ . وعلاماته المرضية أنه لا يرضى بالنظام القائم ، وينحى باللوم على جميع الناس ما عدا نفسه ، ثم ينتابه الغضب فلا يملك نفسه مهما كان شأن الحاضرين ، ويتحول سريعاً من الغضب والضيق إلى العطف والحساسية المليئة بالضعف . ومن علاماته الخاصة أنه يشغل نفسه بأعمال غير صالحة له مثل تنظيف الأحذية وصنعها وجمع الحشائش من الأرض . وخير علاج ألا يحفل جميع الذين يحيطون به بما يقول ، وأن يشغل بما ينفق فيه جميع ما فيه من نشاط . ووصف الكونتيسة زوجته بقوله هي أيضاً من النوع الذى لا خطر منه ولكن تفتابها أحياناً نوبات ، يجب فيها استعمال القوة معها ، فهى عرضة لحنون الغضب الشديد المصحوب بالصخب ، وهى تتوهم أن الناس يطلبون منها كل شئ وأنها لا تستطيع أن تفعل كل شئ . ومن علامات مرضها حل مسائل لم تقترح ، والإجابة على أسئلة لم تسأل ، والرد على اتهامات لم توجه ، وإرضاء مطالب لم تطلب . وعلاجها العمل الشاق والأكل الخاص والابتعاد عن حياة المجتمعات .

فى سنة ١٨٨٤ انتابت الكونتيسة أزمة شديدة أخرى وعادت

إلى اتهام زوجها والعمل على تنغيص حياته، وحاولت الانتحار مرة أخرى، وكانت في ذلك الوقت قد قاربت أن تخرج إلى العالم طفلاً صغيراً من أطفاله الكثيرين . ولا ريب في أن العامل الأول في هذا الخلاف دائماً مسألة النزول عن أرباحه من مؤلفاته ، وقد حاول مرات عدة أن يفهمها موقفه الذي لا يتفق مع ما ينشره من آراء حتى صار عرضة للنقد والتجريح ولكنه لم يفلح في إقناعها . وأخيراً رأى أن محاولاته من العبث فوكل إلى الزوجة أمور أملاكه وحقوق الطبع في كتبه التي نشرها، قبل سنة ١٨٨١ وظن بذلك أن العاصفة هدأت ولن تعود .

١٤

مجد

انتهى قرن من الزمن وبزغ نجم قرن آخر وقد أرى تولستوى على السبعين، وهو الذي كان يظن وهو في مقتبل العمر وشرح الشباب أكثر من مرة أنه مصاب بمرض خطير . وكم من مرة اعترته أمراض ظن معها أنه لا يعيش ، وقد قطع هذه المرحلة من عمر بني الإنسان وقد مسته الشيخوخة في مظهره فتجعد وجهه وابيض شعره، ولكن قوته البدنية لم تصب بوهن ظاهر . ففي هذه

السن أو قبل ذلك بسنوات قليلة تزوره إحدى تلميذاته من
الأنجليزيات فيعلمها كيف تركب الدراجة . وهو في هذه السن
يلعب الفتيان من أولاده فيسابقهم في الجرى مسافات طويلة
من غير أن يظهر عليه تعب ، وهو يعمل في الحقول مع الفلاحين
فلا يكمل من العمل . وكان اسمه قد انتشر في جميع أنحاء العالم
وصارت داره في اسنايا بوليانا مزاراً يحج إليه الأدباء والمصلحون
وجميع الذين يفكرون في خير الجنس البشري ، وكان زملاؤه من
الكتاب الروسيين يعترفون بزعامته ؛ فالقصصى تشيكوف أمير
القصة القصيرة كان كبير التعلق بالفيلسوف الهرم وكان على
اتصال به ، وقد وصفه في رسالة بقوله « إنى أعرف تولستوى وأعتقد
أنى أعرفه جيداً ، وأفهم كل حركة من حركات عينيه ، وأحبه حباً
حقيقياً » وأعرب لصديق عن مخاوفه عند ما مرض الفيلسوف مرضاً
شديداً بقوله « إنى أخشى وفاة تولستوى ، فلو مات لترك فراغاً في
حياتى أولاً لأنى لم أحب أحداً قط كما أحبته ، ولست من الذين
يتمسكون بالعقائد ، ولكننى اعتبر عقيدته أقرب العقائد إلى
نفسى وثانياً لأنه ما دام تولستوى بين الأدباء فمن السهل واللذيد
لدى أن أعيش كاتباً وإن لم أكتب شيئاً . ولست أكتب الآن
شيئاً فليس فى ذلك إيلا لى ؛ لأن تولستوى كتب ما فيه الكفاية
للجميع . ومؤلفاته تحقق الآمال التى تعقد على الأدب . ثالثاً

لتولستوى وقفة ثابتة وسلطان عظيم وما دام تولستوى حيا فان قلة
 الذوق في الأذهب والتفاهة في كل نوع والاندفاع أو البكاء وكل
 ما هو عنوان للمظاهر سوف يظل بعيداً وخفياً، وسيحتفظ سلطانه
 الأدبي للتيارات الأدبية بمستواها العالى فبغيره يكون الأدباء
 قطعاً بلاراع أو خليطاً لا يمكن أن يجد فيه الإنسان شيئاً .

ولم تكن شهرة تولستوى في الأقطار المختلفة مقصورة على تلاميذه
 بل صار اسمه علماً معروفاً ثابتاً في كل البلاد وكان العظماء من
 مختلف الأجناس إذا زاروا روسيا لا بد أن يعرجوا على الفيلسوف
 في قصره ليروا أثمن درة في تلك البلاد. ومن الذين زاروه من مشاهير
 الشرق الزعيم غاندى الذى تأثر بآرائه تأثراً كبيراً واقتبس منه فكرة
 المقاومة السلبية وطبقها تطبيقاً عجبياً شاملاً في تلك الحركات التى
 قام بها من أجل خلاص الهند. وعند ما اخترع أديسون المخترع
 الأمريكى آلة الفونوغراف رأى أن يهدى إحدى أعاجيبه إلى
 فيلسوف روسيا الذى أرسل له رسالة يعرب فيها عن سروره
 العظيم بهذا الاختراع ويشكره على هديته. وهكذا كان تولستوى
 في أوائل القرن العشرين في طليعة رجال الفكر لا في أوربا وحدها
 بل في العالم بأسره .

ولعله لم يبلغ أحد من الكتاب الذين عرفوا تولستوى في حياته
 في وصفه، ما بلغ جوركى الكاتب الروسى الشريد الذى عرف

الشقاء وعاش بين الشريرين وامتدت به الحياة إلى أن رأى الثورة الروسية وصار من أكبر مؤيديها وزعيم أدبائها، فهو من بين الذين اتصلوا بتولستوى في شيخوخته وعرفوه حق المعرفة وقدروا مواهبه وتأثروا بأفكاره، وإن كان قد عرف شيئاً من مواطن الضعف فيه؛ فهو يخبرنا أن تولستوى ما كان يهتم له إلا اهتماماً نوعياً، أى كان يحب أن يدرس فيه رجلاً ولد في الشقاء وعاش فيه. على أن جوركى لم يهمل الجانب الإنساني من تولستوى وتكلم عن قلبه الكبير وحبّه للإنسانية وبساطته في معيشته، ورسم له صوراً حية بديعة يصف فيها خصاله كقوله:-

«إني لأذكر عينيّ الناقدتين اللتين تريان كل شيء، وحركة أصابعه التي كأنها تصنع شيئاً من الهواء، وأذكر حديثه ونكاته وصوته الذي لا يمكن تحديد رنته، وأقدر أى نصيب كبير كان لهذا الرجل في الحياة وإلى أى مدى بعيد كان ذكاؤه الباعث على الرهبة. لقد رأيته مرة في حال ربما لم يره فيها انسان عند ما ذهبت لزيارة جاسبيرا، إذ بينما كنت أسير على شاطئ البحر رأيت رجلاً ضئيل الجسم منحني القامة قليلاً في ثيابه الرمادية وقبعته القديمة جالساً في الطريق على مقربة من قصر آل يوسكوف وقد أسند خديه بكفيه، وبرزت نتف فضية من شعره تلوح من بين أصابعه، وهو يطيل التأمل في البحر، حين كانت الأمواج الخضراء

تزحف إلى قدميه في دعابة ، كأنها تروى قصتها لذلك الساحر القديم. وكان الجو تغطيه أحياناً أشباح السحب وهي تسير فوق الصخور ، فتضيء صورة الرجل الهرم بضوء الشمس ، ثم تعود إلى الظلام . وكانت الصخور كبيرة بها مغاور وتفوح منها روائح الأعشاب البحرية التي قذفها المد في اليوم السابق ، ونظر هو إلى وكأنه قطعة من صخر قديم حتى يعرف بدايات الأشياء ونهاياتها ، ويفكر متى وكيف يكون مصير أحجار الأرض وأشجارها ومصير مياه البحر والإنسان والعالم بأسره من الصخر إلى الشمس . . . فكأنى أصبت بجنون عجيب ، واعتقدت أنه من المستطاع أن يقف على قدميه ويشير بيده فيسكن البحر ويصير كالزجاج ، وتتحرك الصخور وتصبح ، وتدب الحياة في كل ما حولنا ونسمع أصواتها وحديثها ، كل يتكلم بصوته عن نفسه وعنه هو ويتكلم ضده ، ولم تكن لدى من العبارات ما يعبر عما جال بنفسى في تلك اللحظة ؛ فقد امتلأت النفس بالابتهاال والخشية ، ثم انتقلت إلى شعور فرح ، إذ قلت لها لست الآن يتما ووحيداً في هذا العالم ، ما كان هذا الرجل موجوداً فيه ، فتراجعت محاذراً وأنا أحاول ألا يحدث وطء قدمي للأحجار صوتاً وعدت من حيث أتيت لكى لا أقطع عليه سير أفكاره . . . كنت أفسر تحيته حين يتلقانى بقوله سعدت صباحاً ، بأنها كلمة لعلها لاتسرنى

وليس لها معنى لديه ولكنها مجرد تحية ثم يظهر هيكله الضئيل
 وإذا جميع الأشياء حوله تنكمش بالنسبة إليه ، بلحيته المتدلية كالحية
 الفلاح ويديه الخشنتين العجيبتين وملابسه العادية وذلك المظهر
 الديمقراطي الخارجى الذى خدع كثيرين . فيلاحظ المرء كيف أن
 بعض الروسين الذين اعتادوا أن يحكموا على الناس بمظهرهم ،
 وهى عادة قديمة تم على العبودية ، ينتقلون إلى صراحة سافرة
 لعل وصفها بالآلف هو أقرب للحقيقة ...

« إذن أنت واحد منا . ولقد وجدتك . لقد صرت أخيراً جديراً
 بأن أنظر إلى وجه أكبر أبناء بلادى ، فاليك تحيتى الآن ودائماً
 وأقبل أكبر احترامى ... »

هذا هو الأسلوب الروسى لأهل موسكو بسيط وصريح ، ولكن
 هنالك أسلوباً روسياً آخر هو الذى يستعمله الرجل الحر الفكر .
 « انى لا أستطيع الموافقة على آرائك فى الدين والفلسفة ياليف
 نقولاً يفتش ، ولكنى احترمك كفنان كبير ... »

وحيث يظهر فجأة من ثنايا تلك اللحية المتدلية التى هى أشبه
 بلحية الفلاح وتلك السرة الديمقراطية المشوشة ذلك السيد الروسى
 العتيق الارستقراطى المحتد ، وحيث نجد هؤلاء الناس الذين
 تكلموا فى صراحة واندفاع وقد ازرقق أنوفهم من أثر برد
 قارس : وإنه لمن اللذة أن ترقب ذلك الجواد الأصيل فستلاحظ

علام الرقة والنبل في إشاراته ، وتبين كيف يتحكم برقة في الحديث ، وكيف يسدد الرماية بالعبارة المصقولة وكان فيه من صفات السادة ما يستطيع به أن يقف العبيد والمراثين . فاذا ما استيقظ السيد في تولستوى ظهر في سهولة وبساطة ووقفهم عند حدهم فاذا بهم لا يجدون أمامهم إلا أن ينكمشوا ويقبعوا في أنفسهم . لو أراد ليف نيقولايفتش أن يجذب أحداً لوصل إلى غرضه في سهولة أكثر من امرأة جميلة ذكية . وكثيراً ما تمتلئ غرفته بخليط من الناس ، الغراندوق نيقولاى ميخائيلوفتش وإيليا المبيض الاشتراكي الديمقراطي من بلدة « يالتا » والسياسي باتسوك أو أحد الموسيقيين والمدير الألماني لأملاك الكونتيسة كلاينميكل والشاعر بولكاكوف ، فتراهم جميعاً جلوساً وهم ينظرون إليه متيمين به في حين هو يشرح فلسفة « لاو - تسي » لهم وكأنه جوقة موسيقية كاملة يقوم بها رجل واحد

هذا وصف له من رجل كان من بعده في طليعة كتاب روسيا وصار زعيماً للأدباء في عصر السوفييت .

فرار

من الطبيعي إذا ما بلغ المرء الثمانين وهي تعتبر مديدة في حياة بني البشر ، أن تهدأ نفسه ، وأن يستقر ما يهب من عواصف تأثرة ، وأن يترك أمور الحياة تسير في طبيعتها ، وأن يعتبر أن رسالته في هذه الحياة قد انتهت وأن المراحل التي قطعها لا يستطيع العودة فيها .

تلك طبيعة الإنسان . ولما يساعد على هذا السكون وهذا الاستسلام أن يكون قد نال قسطاً مما يعتبر في هذه الحياة سعادة أو نوعاً من السعادة . وقد وفق تولستوى للسعادة بحسب مقاييس الناس أو هولم يعرف غيرها ؛ فقد جاءه المال عفوا دون أن يسعى إليه ، ورثه عن أب عن جد ، وخلف ذرية كبيرة فعاش منعماً . وكان يستطيع ألا يعرف الشقاء إلا على أنه كلمة تدل على حالة يصاب بها بعض الناس ، ولكنه أوتي نعمة ، أو قل نعمة ، هي العقل ، فأبى إلا أن يعرف الشقاء ويدرسه بنفسه ، فبدت نتيجة ذلك في مؤلفاته العديدة التي تكلم فيها في موضوعات كان يرى

أقرب الناس إليه ، أعنى زوجته ، أن لا طائل من ورائها فهي لا تزيد المال ولا تجلب الشهرة .

لم يبق له وقد بلغ الثمانين من العمر إلا أن ينظر إلى الماضي فيجد أنه بذل جهداً جباراً ، وأخرج للناس من روائع الأدب والحكمة ما قد يخلد اسمه دهوراً أما أن تنبت آراؤه الاجتماعية وتنمو ويكون لها أثر بعيد في العالم ، فذلك موكول للأقدار ، ولا يرجى منه بعد الثمانين أن يفعل أكثر من ذلك وعليه فيما بقي من سنوات معدودات أن يخلد إلى هدوء يشبه هدوء الذي يتفرج على قصة مسرحية فلا يتأثر بها لمجرد أنه يشعر بأنه يشهد قصة .
وليس من المفروض أن يشعر الإنسان بنهاية أجله مادام بعيداً عن وطأة مرض خطير ، والأمل في الحياة والانخداع بها لا ينقطع ما دامت الحياة ، ولكنه قد يشعر بأنه قام بواجبه فلم يبق له إلا الراحة .

على أن تولستوى لم يكن من الذين يخلدون إلى الراحة وقد عمل كثيراً ووجد أنصاراً من كل جانب يسعون لتحقيق أفكاره ، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه لم يتبع تعاليم نفسه ، فهل نزل عن طيب خاطر عن ثروته ؟ إنه اتخذ مظهر الفقراء في لباسه وفي معيشته أحياناً ، ولكنه يفعل ذلك كما يفعل الممثل ، لا كما فعل قديس مثل فرانسيس داسيزى مثلاً ، فهذا كتب ونشر بالوسائل

الحديثة وملاً الأرض صياحاً من أمريكا إلى الهند، وذلك لم يكن يملك من الوسائل إلا القول والمثل الذى يضربه للناس فى نفسه . إنه يستطيع أن يزعم الآن بأنه وزع ثروته على أولاده وعاد هو فقيراً لا يملك شيئاً ولكن ما شأن تلك المبالغ الكبيرة التى تندفق عليه من أرباح مؤلفاته وهى الحقوق التى تحاول امرأته وتجاهد فى سبيل الاحتفاظ بها ويريد أشد تلاميذه تعصباً لمبادئه أن يحمله على النزول عنها وتركها للأمة .

فهو فى هذه السن المتقدمة لا يزال يجد فى حياته مشاكل لا بد أن يحلها . ولعل أكبرها هذا الصراع القائم خفية ثم علانية بين الزوجة التى تفكر فى نفسها وأولادها وبين الأنصار من تلاميذه الذين اتخذوا آراءه مذهباً وأرادوا أن يحملوا أستاذهم على أن يتبع هذا المذهب وأن يكون أول من يطبقه .

ولقد صارت مسألة الوصية التى يوصى بها الأستاذ من أكبر موضوعات النزاع بين الزوجة وبعض وأولاده من جانب وبين التلاميذ وبعض بناته من جانب آخر . وقد ذهبت الزوجة فى هذا الصراع العنيف إلى حد خيف فيه أن تفقد عقلها نهائياً . وكان مجرد رؤية أحد غرملئها من المريدين أو البنات ولا سيما شرتكوف زعيم هؤلاء الغرماء مما يحدث لديها نوبة شديدة من الاضطراب والنواح . وفى وسط هذه الزواجر المتصلة يعيش الفيلسوف

وهو يترجح بين هذا الفريق وبين ذاك : هذا بجذبه وذاك يجذبه ،
حتى ليكاد يمزق بينهم وكأنهم زبانية الجحيم .

ولقد أدى به الأمر إلى أن أرسل ذات مرة إلى شرتكوف
يطلب إليه أن يمتنع زمناً عن زيارته ؛ لأن امرأته لا تطيق رؤيته .
ولكنه في الوقت ذاته اتفق مع شرتكوف سراً على تحرير وصية
نهائية ينزل بها عن حقوقه في مؤلفاته لصالح الدعاية لمذهبه .
ففي أحد الأيام ادعى الفيلسوف أنه ذاهب لنزهة في الغابة وكان
يستطيع إلى ذلك الحين أن يمتطي الجياد فقصده مكاناً معيناً
سبقه إليه شرتكوف وبعض الشهود ، وهناك وقع وصية قانونية
نزل فيها عن حقوقه وجعل ابنته قائمة على تنفيذ الوصية وهو ما
يتفق مع القانون الروسي ، ثم عاد إلى دارم وقد ارتاح من إلحاح
تلاميذه ، ولكن ضميره كان مثقلاً لأنه حرم امرأته وأولاده
حقوقهم . ولعل أشد ما آلمه وأثر في نفسه أن رجلاً مثله اعتاد
الصراحة في كل عمل يقدم تحت ضغط أنصاره على عمل بعيد
عن الصراحة .

لم تلبث الزوجة أن علمت بما حدث وضاعفت الشكوى من
تصرفاته ، وعزمت عزمًا أكيداً على أن تستولى على هذه الوصية
أو تثنيه عنها . ولكن كيف تستطيع ذلك وهو مرتبط في ذلك الوقت
بتلاميذه ، ولو أراد العدول عن وصيته لما استطاع .

كان شرتكوف الداعية أقوى إرادة من النبي الهرم فهو الذى يسيطر على تفسير مذهبه، وهو الذى يسطير على النبي حتى فى أخص تصرفاته .

أما الزوجة فهى تضج بالشكاية وتلتمس بوسائل العنف أو الحيلة أن تضع يدها على الوصية، وتضطهد الشيخ فى سبيل ذلك اضطهاداً كبيراً .

وكانت تشعر أن شرتكوف عدوها الألد، وهى تنهمه أمام جميع الخلائق وترميه بكل نقيصة، وتغرق فى ذلك حتى تتوعد بدس السم له .

وبلغ من حقدتها أن دعت ذات ليلة كاهناً وأحرقت صور شرتكوف، ثم طلبت إلى الكاهن أن يطهر الدار من سحر الشيطان، فأخذ الكاهن بملابسه الدينية المزركشة يرتل الآيات ويرش غرفة تولستوى ومكتبه بالماء المقدس .

هذا شأن الأب والأم . أما الأبناء فانقسموا إلى معسكرين فريق يؤيد الأم ويرى أنها إن بالغت أحياناً فهى معذورة لأخطاء الفيلسوف، وفريق آخر يؤيد الأب أو لنقل إنه يؤيد شرتكوف . وعلى رأس هذا الفريق الأخير الكسندرا ابنة تولستوى التى كانت أكثر الأبناء شبهاً بأُمها، وكانت صديقة حميمة لشرتكوف فهى وكيلة عنه فى هذه الدار التى دخلها الشقاق فجعل منها جحيماً

لرجل عظيم في شيخوخته كان أخرى به أن يجد الراحة والدعة في تلك الأيام الأخيرة .

أثرت هذه الحال في تولستوى وقد جاوز الثمانين ، ففي ٣ أكتوبر سنة ١٩١٠ أغمى عليه ذات مرة ، وظنت زوجته وظن تلاميذه أن النهاية أشرفت ، فجاء شرتكوف إلى الدار في خفية عن الزوجة لكي يأخذ في تنفيذ الوصية ، وفاجأت الابنة الكبرى الأم وهي تحاول الاستيلاء على بعض المؤلفات المخطوطة لزوجها فحالت بينها وبين ما تريد .

على أن الفيلسوف ما لبث أن أبلى من مرضه ، وكانت الابنة الكبرى قد اعتزمت مغادرة الدار ، فتوسلت إليها أمها ووعدت باحترام إرادة الزوج وعاد الوثام ، وذهبت الزوجة في سبيل المسألة إلى حد دعوة شرتكوف لزيارة البيت .

ومع ذلك لم يكن هذا الهدوء إلا ظاهراً ، فالزوجة لم تقلع عما اعتزمته من أمرها ، وتولستوى لا زال يشعر في أعماق نفسه أنه لم يقم بواجبه ، وأن حياته إن هي إلا عراك دائم ، فهو يكتب في مذكراته : « أجد الضغط الدائم والارتياح والتجسس ، وأجد من جهتي رغبة سوء في أن تتيح لي سبباً للرحيل ، ثم أذكر مركزها فأرئى لها ولا أستطيع كنت طول الليل أشعر بنزاعى الألم معها إنه لا يحتمل إنه لفظيع » .

حدث بعد ذلك أن زار الفيلسوف رجل من أحب تلاميذه إليه وهو الفلاح نوفيكون فرغب ، إليه الفيلسوف أن يجد له داراً صغيرة في قريته النائية كي يأوى إليها ويخلد إلى الهدوء ، وظل يخطط في مذكراته ما يشعر بالضيق من حالته وتبرمه بما أسماه الجاسوسية المحيطة به .

في الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر استيقظ فإذا به يسمع حفيف ورق ، فقام وقصد مكتبه ففاجأ زوجته وهي تبحث بين أوراقه ، وهو حادث بسيط كثيراً ما أتت ما هو أكبر منه ، ومع ذلك كانت الكأس قد طفحت فثارت نفسه اشتمراً وأشعل الشمعة ، فلما رآته سألته عن صحته فأجابها أجابة غامضة ، وتركت هي ما كانت فيه وعادت إلى مخدعها ، وقصد هو فراشه وتصنع النوم إلى أن وثق من نومها ، فقام وارتدى ملابسه وحمل في يده حذاءه ومشي على أطراف أصابعه وقصد إلى غرفة ما كوفتزكي تلميذه وطيبه فأيقظه ، ثم قصد إلى الغرفة التي تنام فيها ابنته الكسندرا وصديقة لها فأيقظتهما وأنبأهما بعزمه على الرحيل وأن يعدا العدة لسفريه .

وبينما كانا يفعلان ذلك أخذ يخطط رسالة وداع لزوجته : « أعلم أن رحيلي سيحزنك وإني لأسف لذلك . ولكن أرجو أن تفهمي وتعتقدي أن ليس ثمة سبيل آخر . فركزي بالدار قد صار لا يحتمل .

ثم لا أستطيع بعد الآن أن أعيش عيشة الشرف التي ظلت أحياءها حتى الآن . وإني في بساطة أقدم على ما أفعله في مثل شيخونتي ، وهو الانسحاب من العالم لكي أقضي الأيام الأخيرة من حياتي في هدوء ووحدة . أتوسل إليك أن تحاولي فهم هذا وإذا علمت مكاني فلا تتبعيني فمجيئك لا يغير من عزمي ويزيد مركزنا سوءاً ، وإني لشاكر لك على ثمان وأربعين سنة شريفة قضيناها في معيشة واحدة ، وأتمنى منك أن تصفحي عن كل ما استحق عليه اللوم نحوك ، كما أتي أصفح بمجامع نفسي عن كل ما تستحقين عليه اللوم نحوي . ونصيحتي إليك هي أن تألني هذا المركز الحديد الذي يضعك فيه رحيلي ، وألا تكني أي شعور سيء نحوي . وإذا أردت أن ترسلي إلى شيئاً فاعطيه لساناً فهي ستعرف مكاني وترسل إلى ما هو ضروري ، ولكنها لا تستطيع أن تخبرك بمكاني لأنها وعدت ألا تخبر أحداً .

وخرج تولستوى في الظلام الدامس ليأمر بأعداد العربية والخياد ، وفي طريقه اصطدم بشجرة أطاحت بقبعته ووقع في حفرة بين الأشجار وعاد منهوك القوى ورأسه عار ، فأتت له ابنته بقبعة أخرى وخرجوا معاً إلى حيث العربية . وأخبرها الشيخ أنه سيقصد أولاً زيارة أخته في دير شامردينو ومنه يرسل إليها بأبنائه ، وركب العربية مع طبيبه ، وامتطى خادماً جواداً وفي يده مشعل كي ينير

الطريق أمام العرب، وسار الركب في الطريق . أما الفتاتان فتقلتا عائدتين وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الصباح .

سارت العرب إلى المحطة ومنها ركب تولستوى وطبيه القطار في مساء ذلك اليوم إلى دير أوبتينا حيث أرسل الشيخ برقية إلى ابنته الكسندرا وأخبرها أنه سيواصل السفر في اليوم التالي إلى مقر أخته وأمضى البرقية باسم مستعار حتى لا يعرف مرسلها .

وفي صباح ٢٩ أكتوبر لحق به رسول من شرتكوف أنبأه أن الكونتيسة ما علمت برحيله حتى حاولت الانتحار بأن ألقت بنفسها في البحيرة . وقد عرضت عليها فكرة الانفصال فأبدت معارضة شديدة في ذلك ، وأنها عازمة على البحث عنه والحقاق به وكانت الكسندرا عند ما جاءتها برقية أبيها قد رأت أن تخبر أخوتها بفراره ، ولكنها كتبت عن الجميع مقره ولم تخبر أحداً غير شرتكوف .

شعر تولستوى على أثر هذه الأنباء بأنه مطارّد ، ولكنه لم يغير من طريقه وقصد إلى مقر أخته ، وإن كان قد عزم على الإيقيم في جوارها طويلاً . ولما قرع بابها في مساء تلك الليلة كان متعباً ووصف لها حالته والدموع تتناثر من عينيه فطابت خاطره وعاد إليه همدؤه وعاد إلى التفكير في المقام على مقربة منها .

ولحقت به الكسندرا وصديقتها في اليوم التالي فامتعض لحيئ
تلك الفتاة التي كانت تناضل أمها لاسبب اختلافهما في الطباع
بل لقرب الشبه بينهما فكل منهما مندفع عنيف .

أثارت الكسندرا من مخاوفه مرة ثانية وزعمت أن مكانه لا
يلبث أن يعرف ، وألحت عليه في الرحيل العاجل فقرر الشيخ
المسكين متابعة السفر مع أنه في الواقع لم يكن قادراً عليه ؛ ولم يخطر
للطبيب أن يعترض على هذا السفر بل لقد أمضى الليل في لعب
الورق مع تلك الفتاة الجبارة .

وفي الساعة الرابعة صباحاً أيقظ تولستوى رفاقه وكتب كلمة
إلى أخته ينبئها بأنه يسافر فجأة خشية أن يكتشف مقره ؛ وأمضى
ثلاث ساعات في العربة التي أقلته إلى المحطة في حين كان المطر
والثلج ينهمر عليه في جو عاصف .

في المحطة ركبوا القطار وقد قررت الفتاة السفر أولاً إلى رستوف
أي أن تقطع بالشيخ نحو ألف من الكيلومترات . .

انزوى تولستوى في مقعده وقد ظهر عليه المرض وأخذ يرتعش
برداً تحت رداءه السميك . وأخيراً لحظ الطبيب علائم المرض وقرر
أن يتعرف مقياس حرارته فإذا هي مرتفعة ارتفاعاً كبيراً ، وكانت
الساعة الرابعة مساءً ومرت ساعتان وإذا حرارة جسده تتزايد ،
وانزعج رفاق الشيخ وقرروا أن ينزلوا في أول بلدة يقف بها

القطار ، ونزلوا في أول بلدة وكانت استابوفو وقال تولستوى وهو يغادر القطار متكئاً على ذراع ابنته « لقد قهرنا في هذه المسابقة فلا تتضايقى » .

قدم ناظر المحطة للضيوف غرفة في داره إذ لم يكن هنالك مأوى آخر، وأعد للمريض سريراً متواضعاً، فإذا تم اعداده انتقل إليه الشيخ من المحطة وحجى بطبيب القرية وتعاون الطبيبان على فحصه وقررا أنه مصاب بالتهاب في الرئة . وكان تولستوى قد أخذ يسعل وظهر الدم في بصاقه ولكنه كان يسائل في قلق: « هل نستطيع مواصلة السفر في الغد ؟ » ثم ما لبث أن ازدادت حالته سوءاً ولكنه كان يصيح: « يجب أن نرحل .. يجب أن نرحل قبل أن يدركونا » .

أخطرت الكسندرا شرتكوف بمرض أبيها، ولكنها لم تخطر أمها وكانت قد بدأت تشعر بخطورة الحالة، فأخطرت أخاها سرج وطلبت إليه أن يحضر طبيباً ماهراً .

أما الزوجة فلم تعلم بحال زوجها إلا من بركة أحد مراسلى الصحف الذى تطوع فأخبرها بحال زوجها ومكانه ، فسافرت مسرعة في قطار خاص مستصحبة ابنتها تاتيانا وابنيها ميخائيل وأندريا . وفي اليوم التالى كانت أنباء فرار تولستوى ومرضه في جميع الصحف ، وصارت هذه القرية الصغيرة موضع اهتمام العالم، وهرع

إليها الأقارب والأصدقاء ورجال الصحافة والمصورون ورجال السينما، وإذا هذا المريض الذى كان ينشد الوحدة ويود أن يقضى أيامه الأخيرة فى هدوء ، يمضى تلك الأيام الأخيرة وسط زوبعة من الإعلان لم يسبق لها مثيل حيث ينقل البرق انباءه ساعة فساعة إلى جميع العواصم فى أوروبا وأمريكا .

وصلت الزوجة إلى مقر زوجها المريض، ولكن الابنة والمزيد حالا دون مقابلتها له وظلت المسكينة مقيمة فى القطار الخاص ولم يسمحوا لغير ابنتها المرافقة لها فى دخول البيت ، ولم يعلم تولستوى أن امرأته مع ثلاث من أبنائه يحومون حول البيت الذى رقد فيه .

قضى تولستوى ليلة ٣ نوفمبر فى اضطراب وإن خفت وطأة الحمى . فاذا أصبح الصباح تنبه قليلا إلى وجود ابنته تاتيانا فسألها عن أمها فأخبرته بأنها تود لو تدعى إلى سرير مرضه فلم يجب . وبعد زمن قصير طلب إلى الكسندرا أن ترسل برقية إلى أولاده كى يحولوا دون مجئ أمهم إذ أنه يشعر بضعف فى قلبه وقد لا يحتمل رؤيتها .

وكان أهله المحيطون به فى اليوم التالى يترددون بين الخوف والأمل وهم يسهرون على راحته، بينما الزوجة تراقبها ممرضتان لتحولا بينها وبين الدخول ، تختلس النظر من خلال النوافذ أو

تبث شكواها لمن يرغب في سماعها، أو تقف للمصورين وهي واقفة على عتبة الباب كأنها خارجة من البيت بعد أن رأت زوجها .
وكان هنالك شخص آخر يحاول الوصول إلى الأديب دون أن يستطيع ، وهو كاهن تلك الجهة . فأن المحيطين بالأديب حاولوا دون دخوله ، ولو تمكن لسمع العالم أن تولستوى مات بعد أن عاد إلى أحضان الكنيسة .

وفي ٥ نوفمبر كان تولستوى لا يكاد يستطيع الكلام فهو يتمم لابنته : « ان عبناً كبيراً واقع على سونيا . . . لقد أسأنا الترتيب . . . ويتمم لابنه : « الحقيقة . . . إني أحب كثيراً . . . كيف حالهم ؟

وفي اليوم التالى ساءت حالته إلى درجة كبيرة وفقد وعيه ، ولكنه صاح ذات مرة بصوت عال : « لقد جاءت النهاية . . . ولا أنصحكم إلا بنصيحة واحدة . . . إن في العالم كثيرين غير ليون تولستوى وأنتم لا تعنون إلا به . » .

وما جاء الليل حتى كان في أسوأ حال ، وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى دخل في دور النزع الأخير ، وعندئذ فقط سمح لزوجته : بأن تراه ، فجثت إلى جانب سريريه وأخذت تقبل يده وهي تقول « اغفر لي » فتهند تولستوى تهنداً عميقاً ، ولكنه ظل في غشيته إلى أن أسلم النفس الأخير .

أهم الحوادث في حياة تولستوى

مولده في اسنايا بوليانا (٢٨ أغسطس)	١٨٢٨
وفاة والدته	١٨٣٠
انتقال الأسرة إلى موسكو	١٨٣٦
وفاة والده	١٨٣٧
السفر إلى قازان	١٨٤٠
الالتحاق بجامعة قازان	١٨٤٤
البدء في تدوين مذكراته	١٨٤٧
مغادرته قازان إلى موسكو	١٨٤٨
السفر إلى القوقاز	١٨٥١
الالتحاق بالخدمة العسكرية	١٨٥٢
النقل إلى جيش الدانوب	١٨٥٤
موقعة سيباستبول	١٨٥٥
وفاة القيصر نقولا الأول وتولى اسكندر الثانى	
كتاب الطفولة والشباب	١٨٥٧
قصة بوليكوشكا	
الرحلة الأولى إلى فرنسا وسويسرا	١٨٦٠
الرحلة الثانية إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا والبلجيكا	١٨٦١

قرار الغاء نظام تبعية الفلاحين لصاحب الأرض	
الزواج	١٨٦٢
قصة الحرب والسلام ، مسرحية ثمار الثقافة	١٨٦٧
	١٨٦٩
دراسة اللغة اليونانية	١٨٧٠
وضع كتاب المطالعة	١٨٧٢
قصة انا كرينا	١٨٧٥
	١٨٧٧
كتاب اعترافات	١٨٧٩
مقتل القيصر اسكندر الثاني وتولى اسكندر الثالث	١٨٨١
السكنى فى موسكو	
التعداد واشترائه فيه	١٨٨٢
اتصاله بشيرتكوف — كتاب ماذا يجب أن	١٨٨٣
نفعل إذن	
قصة وفاة إيفان إيلتش	١٨٨٦
ولادة النجل الثالث عشر إيفان	١٨٨٨
قصة سوناته كرويتزر	١٨٩٠
اعلان رغبته فى التنازل عن حقوق الطبع فى مؤلفاته	١٨٩١

وفاة القيصر اسكندر الثالث وتولى نقولا الثاني	١٨٩٤
وفاة نجله إيفان	١٨٩٥
نفي شيرتكوف وبير وكوف	١٨٩٧
قصة الحاج مراد	١٩٠١
حرمانه من الكنيسة	
نداء إلى رجال الدين	١٩٠٢
فكروا في أنفسكم ، وفاة أخيه سيرج	١٩٠٤
بدء الحرب بين اليابان وروسيا	
عودة شيرتكوف	١٩٠٧
تحريره وصيه	١٩٠٩
فرار تولستوى (٢٨ أكتوبر)	١٩١٠
وفاته (٧ نوفمبر)	



مجموعة مؤلفات تولستوى

- الطبعة الروسية أشرف عليها بيروكوف وهى فى ٢٤ مجلداً
 (موسكو سنة ١٩١٣)
 الطبعة الفرنسية ترجمة بينستوك وراجعها بيروكوف على المخطوطات
 الأصلية (باريس سنة ١٩٠٢)
 الطبعة الانجليزية التذكارية ترجمة لويز والمود فى ١٨ مجلداً
 (لندن سنة ١٩٢٨)

مذكرات تولستوى

- من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٨٥٢
 ترجمها هوجارث إلى الانجليزية ونشرت بلندن سنة ١٩١٧
 ترجمها روستوف وجان دبرى إلى الفرنسية ونشرت فى باريس
 سنة ١٩٢١
 من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٧
 ترجمها لويز والمود إلى الانجليزية ونشرت بلندن سنة ١٩٢٧
 من سنة ١٨٥٢ إلى سنة ١٨٦٣
 ترجمها شوزفيل وبوزنر إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩٢٦
 من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٩

ترجمها روزستر ونزكى إلى الانجليزية ونشرت بنيو يورك ١٩١٧
 ترجمها روستوف وجان دى بيت إلى الفرنسية ونشرت بباريس
 سنة ١٩١٠

سنة ١٩١٠

ترجمها إلر مود تحت اسم النضال، الأخير ونشرت بلندن
 سنة ١٩٣٦

ترجمها شوزفيل إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩٤٠

مذكرات أعضاء أسرة تولستوى وأصدقائه

مذكرات الكونتيسة تولستوى زوجته ، رسائل تولستوى نفسه ،
 مذكرات بهرز ، مذكرات الكونت إيليا تولستوى ، الكونتيسة
 صوفيا تولستوى (تاريخ حياة نفسها) ، كونت ليو تولستوى
 (الحقيقة عن والدى) ، الكونتيسة الكسندرا تولستوى (مأساة
 تولستوى) ، كونت سيرج تولستوى (النضال الأخير) ،
 محادثات وذكريات لمكسيم جوركى وجولدنفائزر وسير جنيكو
 ويرجاكوف .

أهم الكتب عن حياته

بيروكوف ، رومان رولان ، نويس ، شيرتكوف ، المر
مود ، نازاروف ، ديبلون .

دراسات

ميريچكوفسكى ، شتير ، كروسي ، لافران ، زفايج ،
بورشييه ، سواريس .

فهرس

صفحة		
٧	نبلاء وغير نبلاء	فصل ١
١٣	نشأة	فصل ٢
٢٢	الشباب	فصل ٣
٢٧	أديب	فصل ٤
٣٢	قلق وزواج	فصل ٥
٤٣	الحرب والسلام	فصل ٦
٤٨	نزعات وتجارب	فصل ٧
٥٧	اعترافات	فصل ٨
٦٨	نزعة إلى الدين	فصل ٩
٧٥	الظلم الاجتماعي	فصل ١٠
٨٨	تلاميذ ومريدون	فصل ١١
٩٤	بين الأدب والفلسفة	فصل ١٢
١٠١	شقاق	فصل ١٣
١١٣	مجد	فصل ١٤
١٢٠	فرار	فصل ١٥

۱	الف	۷
۲	ب	۷
۳	ج	۷
۴	د	۷
۵	هـ	۷
۶	و	۷
۷	ز	۷
۸	ح	۷
۹	ط	۷
۱۰	ث	۷
۱۱	ج	۷
۱۲	چ	۷
۱۳	ح	۷
۱۴	خ	۷
۱۵	د	۷
۱۶	ذ	۷
۱۷	ر	۷
۱۸	ز	۷
۱۹	س	۷
۲۰	ش	۷
۲۱	ص	۷
۲۲	ض	۷
۲۳	ط	۷
۲۴	ظ	۷
۲۵	ع	۷
۲۶	ف	۷
۲۷	ق	۷
۲۸	ک	۷
۲۹	گ	۷
۳۰	خ	۷
۳۱	د	۷
۳۲	ذ	۷
۳۳	ر	۷
۳۴	ز	۷
۳۵	س	۷
۳۶	ش	۷
۳۷	ص	۷
۳۸	ض	۷
۳۹	ط	۷
۴۰	ظ	۷
۴۱	ع	۷
۴۲	ف	۷
۴۳	ق	۷
۴۴	ک	۷
۴۵	گ	۷
۴۶	خ	۷
۴۷	د	۷
۴۸	ذ	۷
۴۹	ر	۷
۵۰	ز	۷
۵۱	س	۷
۵۲	ش	۷
۵۳	ص	۷
۵۴	ض	۷
۵۵	ط	۷
۵۶	ظ	۷
۵۷	ع	۷
۵۸	ف	۷
۵۹	ق	۷
۶۰	ک	۷
۶۱	گ	۷
۶۲	خ	۷
۶۳	د	۷
۶۴	ذ	۷
۶۵	ر	۷
۶۶	ز	۷
۶۷	س	۷
۶۸	ش	۷
۶۹	ص	۷
۷۰	ض	۷
۷۱	ط	۷
۷۲	ظ	۷
۷۳	ع	۷
۷۴	ف	۷
۷۵	ق	۷
۷۶	ک	۷
۷۷	گ	۷
۷۸	خ	۷
۷۹	د	۷
۸۰	ذ	۷
۸۱	ر	۷
۸۲	ز	۷
۸۳	س	۷
۸۴	ش	۷
۸۵	ص	۷
۸۶	ض	۷
۸۷	ط	۷
۸۸	ظ	۷
۸۹	ع	۷
۹۰	ف	۷
۹۱	ق	۷
۹۲	ک	۷
۹۳	گ	۷
۹۴	خ	۷
۹۵	د	۷
۹۶	ذ	۷
۹۷	ر	۷
۹۸	ز	۷
۹۹	س	۷
۱۰۰	ش	۷

طالعوا في أول كل شهر

الكتاب

المجلة الفريدة التي يعتز بها كل
متعلم ومثقف لما يجده فيها من
الأبحاث والدراسات الرصينة في مختلف
ألوان الفكر لأبرع الأقلام العربية

أناقة في الإخراج
تحفة للمكتبات
ذخيرة للعقول

الثنى ١٠ قروش

تصدرها

دار المعارف بمصر

رئيس التحرير الأستاذ عادل الغضبان



مطبوعات حديثة

رسائل صينية ترجمة السيدة سهير القلماوى

رسائل لإنجليزى معاصر بحث فيها المدنية الشرقية ،
أو الصينية بالذات ، وقارن فيها بين ما عرف الصين من
معنى الحياة فسعد ، وما عرف الغرب من معناها فشقى .
(١٥ قرشاً)

هنرى الثامن ترجمة محمد عوض إبراهيم بك

إحدى درر شكسبير الخالدة تقدم لنا صورة
صادقة لحياة هذا الملك وما اكتنفها من حوادث وأحاط
بها من مفاجآت .
(١٨ قرشاً)

إعادات طبع :

٢٠ الأيام (جزء أول)	بقلم الدكتور طه حسين بك
٢٥ ذخيرة العطار	بقلم الأستاذ حسن عبد السلام
١٥ كما تهواه لشكسبير	ترجمة محمد عوض إبراهيم بك

مكتبة المطبع والنشر

دار المعارف بمصر

مؤلفات الأستاذ أحمد الصاوى محمد

مدرسة النبوغ

(حياة مدام كوري)	التلميذة الخالدة	٢٥
(القصصى الأعظم)	حياة بلزاك	٢٥
(قبور فى جنة الخلد)	حياة شلى	٢٥
(دون جوان)	حياة بيرون	٢٥
(لويس الرابع عشر)	عرش وقلب	٢٥

مدرسة السياسة والحرب

مدرسة المجتمع

٢٠	مأساة فرنسا	٢٠	شباب القوجا
٢٠	أسرار انهيار أوروبا	٢٠	جرائم شرقية وغربية
٢٠	الرقص على البارود	٢٠	العاصية
٢٠	الطابور الأول	٢٠	الموجة العذراء
٢٠	الوحش الأصفر	٢٠	حياة قلب
٢٠	والدب الأحمر	٢٥	رجال ونساء أول
		٢٥	» » ثانى
		٢٥	أنا الشرق
		٢٥	الشیطان لعبته المرأة

منزى الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

روضة الطفل

أول مجموعة من نوعها تقوم على أحدث الأساليب العلمية والفنية ، يجد الطفل فيها قصصاً مشوقة مفيدة مزيّنة بالصور المبتكرة ومطبوعة بالألوان .

ظهر منها :



أرنبو والكنز
كتكت المدهش
عيد ميلاد فلة
فرفر والجرس



ثمان القصص ٧ قروش

تصدرها

دار المعارف بمصر

بمعاونة

السيدة أمينة العبد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب



DATE DUE



891.78:T654YmA:c.1

محمود، حسن

نولستوي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032713

American University of Beirut

891.78

T654YmA

891.78

T654Ym A

C.1